القافلة

مجلة ثقافية تصدر كل شهرين • سبتمبر-أكتوبر 2003

إحسان عبّاس

في آخر ما كتبه

هاري بوتر..

قراءة في الظاهرة

ملف العدد

جارنا القمر



العدد 4
المجلد 52

معارض ومؤتمرات

سبتمبر 2003

- مؤتمر نفط وغاز الشرق الأوسط
  - دبي: 7 - 9
- معرض الخليج الدولي
  - الدمام: 13 - 19
- معرض الكمبيوتر وتقنيات المكاتب السعودي 2003
  - الرياض: 14 - 18
- معرض التعليم والتدريب السعودي 2003
  - الرياض: 14 - 18
- معرض الأيام التجارية بالمدينة
  - المدينة المنورة: 17 - 22
- مؤتمر نفط وغاز بحر قزوين والشرق الأوسط
  - دبي: 22
- معرض الربيع الدولي
  - الخبر: 24 - 30
- المعرض الزراعي السعودي
  - الرياض: 28 - 2 أكتوبر
- معرض التقنيات النفطية في الشرق الأوسط
  - البحرين: 29 - 1 أكتوبر

أكتوبر 2003

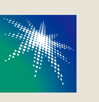
- الأمن والسلامة في الشرق الأوسط
  - دبي: 5 - 8
- معرض الكمبيوتر والاتصالات
  - الجبيل: 13 - 18
- معرض جدة التجاري الدولي السابع
  - جدة: 14 - 19
- معرض الرياض الدولي
  - الرياض: 25 - 30
- معرض ليالي رمضان
  - جدة: 16 - 21
- معرض جيتكس 2003
  - دبي: 19 - 23
- معرض النفط والغاز العربي
  - دبي: 19 - 22
- معرض رمضان العالمي لمستلزمات المستهلك
  - دبي: 30 - 22 نوفمبر

صورة الغلاف

تكوين يجمع بين «الغجري النائم» من لوحة هنري روسو (1897م) وسطح القمر.

راجع ملف القمر ص 87

القافلة



ارامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
عبد الله بن صالح بن جمعة

المدير التنفيذي لشؤون أرامكو السعودية
مصطفى عبدالرحيم جلالي

مدير العلاقات العامة
ناصر بن عبد الرزاق النفيسي

رئيس التحرير
محمد عبد العزيز العصيمي

مدير التحرير الفني
كميل حوّا

سكرتيرا التحرير
عبود عطية
خالد الطويلي

فريق التحرير
حبيب آل محمود
محمد أبو المكارم
مأمون محيي الدين
إبراهيم منصور (القاهرة)
ناجية الحصري (بيروت)
ماجد نعمة (باريس)
رياض ملك (لندن)

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع السروات، جدة

ردمد ISSN 1319-0547

- جميع المراسلات باسم رئيس التحرير
- ما ينشر في القافلة لا يعبر بالضرورة عن رأيها
- لا يجوز إعادة نشر أي من موضوعات أو صور «القافلة» إلا بإذن خطي من إدارة التحرير
- لا تقبل «القافلة» إلا أصول الموضوعات التي لم يسبق نشرها

محطات العدد

سبتمبر - أكتوبر 2003
رجب - شعبان 1424

- **توزع مجاناً للمشتركين**
  للاستفسار عن الاشتراكات - هاتف: 6948 874 3 966

العنوان: أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
فاكس: 3336 873 3 966 - البريد الإلكتروني:
alqafilah@aramco.com.sa

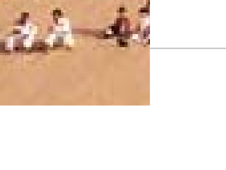
رسالة المحرر

ها نحن مع العدد الرابع في مسيرة القافلة الجديدة. وكل ما نتمناه وقد قطعنا طريق الأعداد الثلاثة الأولى، أن تكون استجاباتنا لأفكار القارئ واقتراحاته في هذا العدد أكثر حضوراً ونضجاً.

لقد سعى فريق التحرير إلى أن يأخذ بأكبر عدد ممكن من آراء أصدقاء القافلة. والرسائل الواردة إلينا لا تزال تحمل المزيد من الأفكار التي جرى تطبيقها وتلك التي تحتمل التطبيق في الأعداد المقبلة.

أما ثمار هذا التواصل فتبدو في "طفرة" طلبات الاشتراك الجديدة التي وردتنا من كافة أرجاء المملكة والوطن العربي، وتعذر علينا نشرها لضيق المساحة، غير أننا سنسعى بعون الله إلى تلبيتها.







1 نستهل هذا العدد، كما في الأعداد السابقة، بمناخ الطاقة الذي استحوذ عليه موضوع واحد يتناول الدور التاريخي الذي لعبه اكتشاف النفط في نمو مدن المنطقة الشرقية كمثال على نمو مختلف المدن في المملكة، وما أحدثه من تحويل قرى صغيرة إلى مدن عصرية كبرى. وتميز هذا المناخ بالصور المقارنة التي تروي مدنيتنا المعاصرة.



2 وفي مناخ القضايا يلقي الصحفي المعروف إبراهيم العريس الضوء على خبايا كتابة التاريخ كما اكتشفها من خلال كتابة زاويته الشهيرة "ذاكرة القرن العشرين". ثم نعرض لقضيتين: الأولى عالمية وتتناول الأسئلة التي يثيرها الرواج العالمي الهائل الذي حظيت به رواية هاري بوتر، والأخرى محلية تدور حول موضوع المراكز الصيفية في بلادنا، وكيف خدمت الشباب في عطلتهم الدراسية؟



3 أما مناخ العلوم فقد تقاسمه موضوعان: مياه الشرب المعبأة في القوارير ومواصفات سلامتها. واتساع رقعة الاختراعات في مجال المراقبة والتحري في عالم التكنولوجيا الحديثة مما أدى إلى ظهور سؤال جديد لم يكن مطروحاً قبل سنوات قليلة حول قدرة هذه التكنولوجيا على اقتحام الحياة الخاصة للإنسان.



في استراحة الفاصل المصور نستضيف عدسة المصور المعروف، سامر معضاد، الذي تعلم فن التصوير في أوروبا، ثم عاد إلى بلاده العربية وجال فيها، وتوقف طويلاً في المملكة ليلتقط مجموعة من الصور، اخترنا بعضها لهذا الملف.



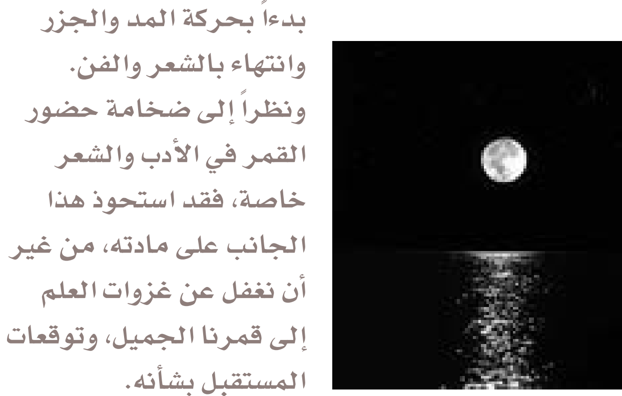
4 وبالوصول إلى مناخ الحياة اليومية سيتوقف القارئ -خاصة إذا كان ممن يعدون العدة لبناء بيت- أمام موضوع حول بناء المسكن الملائم وما يثيره من أسئلة على صعيدي التصميم والتنفيذ ونصائح من أصحاب الاختصاص والتجربة في هذا الشأن لتلافي الأخطاء التي قد يصعب تصويبها لاحقاً.

أما الرياضة المدرسية فنتناولها في هذا المناخ من حيث ما آلت إليه في الغرب، والحالة التي هي عليها في الشرق.





5 يحل بعد ذلك المناخ الثقافي، وقد كانت وفاة العالم الكبير الدكتور إحسان عبّاس، يرحمه الله، الحدث الجلل الذي فرض نفسه على هذا المناخ. وها هي القافلة تحقق سبقاً فتقدم للقارئ مقالة غير منشورة، وربما تكون آخر ما كتبه الفقيد الكبير، يروي فيها تجربته مع الترجمة التي حظيت في مرحلة معينة من حياته بأهمية مماثلة للتأليف والتحقيق.





6 وكعادة القافلة يأتي الملف كخاتمة لتطوافها، وفيه نلتفت إلى جارنا الأقرب "القمر"، رفيق الأرض في رحلتها الكونية، والمؤثر في كافة أوجه الحياة عليها بدءاً بحركة المد والجزر وانتهاء بالشعر والفن. ونظراً إلى ضخامة حضور القمر في الأدب والشعر خاصة، فقد استحوذ هذا الجانب على مادته، من غير أن نغفل عن غزوات العلم إلى قمرنا الجميل، وتوقعات المستقبل بشأنه.

المحرر

الرحلة معاً

إلى أين سنمضي في حوارنا الوطني؟

نحن الآن أمام حالة وطنية تتطلب مزيداً من النقاش والتأمل: جاهزيتنا كمجتمع للحوار في مقابل صدور إرادة هذا الحوار من قمة الهرم السياسي في بلدنا.

حين صدر قرار إنشاء مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني، كنت في لبنان، ذلك البلد العربي الذي يقرأ أهله، من أبسط قواعدهم الاجتماعية إلى أرفع هاماتهم الفكرية، المستجدات السياسية بنهم شديد ووعي رفيع.

هناك التقيت بعدد من رموز لبنان الفكرية والإعلامية، من أجل (القافلة). وقد أتيحت لي الفرصة لأن أصغي إلى العديد من التجارب التي تحملها رؤوس وأكتاف هذه الرموز عبر العقود العربية السالفة. وكم كنت مسروراً وأنا أستمع إلى أولئك المخلصين لأمتهم وهم يعبرون عن تعاطفهم مع المملكة في الأحداث الأخيرة المؤلمة. ولم تخل أطراف الحديث من تعبير بعضهم عن شعوره بحضور سعودي متصاعد، بات، إذا ما قورن بغيره، أكثر وضوحاً ونضجاً في الآونة الأخيرة. فمن الآلام تولد الآمال، ويصح حينئذ، كما قال أحدهم، أن يعاد النظر في بعض الأمور لتستقيم وتأخذ طريقاً أكثر اطمئناناً إلى المستقبل.

في خضم هذا الحضور اللبناني المفعم بالوطنيين، المخلصين لعروبتهم، تابعت بحرص بالغ ما قيل أو كتب عن مركز الحوار الوطني، ومثل كل مواطن كانت الأسئلة التي شغلتني ولا تزال هي: إلى أين سنمضي بهذه الفرصة الوطنية العظيمة، فرصة الحوار الذي يتاح على مصراعيه لكل الآراء والأفكار والأطياف؟ هل نستثمرها ببالغ المسؤولية لنحقق غاية هذا الحوار في بناء اللحمة الوطنية، التي تدرأ عن حياضنا مهاوي التطرف والتعصب والغلو؟ هل نجعل هذا الحوار ذاته حالة يومية مستديمة تُقرّب الآخر وتحتضنه بدل أن تبعده أو تلفظه؟ وهل نحن، بالمجمل، جاهزون للحوار الذي ينسجم وهذه الإرادة الوطنية؟

هذه الأسئلة وغيرها لا بد وأنها خطرت ببال كل مواطن وهو يتابع خبر إنشاء مركز الحوار الجديد. ليس السؤال، أو مجموعة الأسئلة، لمجرد الرغبة في إثارة القلق حيال التعامل مع هذه الخطوة البالغة الأهمية، وإنما هي الرغبة الكامنة في الاطمئنان بأن بادرة من هذا القبيل ستؤخذ على محمل الجد والمسؤولية والفهم السليم، خاصة وأن أي عربيين لا يختلفان في أن بني قومهم لا يتمتعون بفضيلة الإصغاء التي هي من أهم شروط الحوار بين طرفين أو مجموعة أطراف. فالمنتديات العامة وشاشات التلفزيون وحتى الصالونات الخاصة لا تنضح بحوار هادئ يسعى إلى الفهم، بقدر ما تشير إلى مواهب فذة في الصراخ والشتائم ومحاولة كتم صوت الآخر لحساب من يقابله.

ومن تابع، كما فعلت، ما دار من نقاشات في صحف وتلفزيون المملكة، لا بد وأنه شعر بأهمية أن ننتبه لئلا يصاب هذا المنعطف الوطني التاريخي بالضعف، إذا ما خضع حوارنا لنفس المنطق العربي السائد في حوارات المختلفين. لقد طرح الناس، من ألوان فكرية متعددة، رؤيتهم لحوار ينتصر على المصالح الذاتية الضيقة. يريد الناس حواراً يرتقي إلى تحقيق المصلحة الوطنية العليا، ليعود على الجميع بفائدته وخيره. فمثل هذا الحوار فقط هو الذي يحقق إرادة الحوار الناشئة، التي تتخلق الآن في رحم وطن تهبُّ عليه الرياح من جهات متربصّة، تقتات على الحقد وتعيش في الظلام.

إن شروط الحوار المبدئية متوافرة لدينا، حيث لا ينقصنا المثقفون والمتعلمون من الجنسين، بل إن شريحة هؤلاء المتعلمين والمثقفين تتسع يوماً عن آخر، الأمر الذي يوفر لساحة الحوار زاداً متواصلاً من أهل الرأي وقادته. وإذا أضيف إلى ذلك تنظيم الحوار ذاته في صورة مركز يديره ويوفر أسباب مساندته، فإن ما يبقى هو مسؤولية المتحاورين في شكل الحوار وهدوئه ونضجه ونتائجه. بمعنى آخر فقد سقطت كل الأعذار لإجراء حوار وطني مسؤول.

يريد المواطن، تكراراً، أن يحقق الحوار مصالح الوطن العليا، ويريد أن يرى أثر نعمة الحوار على حياته. لذلك ربما يكون من لزوميات هذا الحوار أن يستند إلى العلم، علم الدراسات والإحصاءات والأرقام والحقائق، بحيث يمكن تجنب ورطة المخاطبة وبلاغة الكلام المنمق الذي يغيب بمجرد أن تنفضّ ساحة الحوار. المستند العلمي الدقيق حاجة ملحة للحوار، وهو ما سيؤدي في نتيجته إلى تحقيق آمال المواطن، الذي استبشر بهذه الخطوة واعتبرها استجابة مهمة لتطلعاته وحاجاته الحياتية الملحة.

رئيس التحرير





ترحب القافلة برسائل قرائها وتعقيباتهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

إلى.. رئيس التحرير

تفعيل المكتبة

أفيدكم أننا بصدد تفعيل المكتبة الخاصة بقسم علم الحيوان لتقدم خدمات أفضل لطلبة القسم ومنسوبيه، ونسعى إلى إضافة العديد من الكتب والمجلات العلمية والثقافية التي تسهم في تحقيق هذا الهدف. لذا نرجو التكرم بوضع مكتبة قسمنا ضمن قائمة المستفيدين من مجلتكم الغراء.

د. عثمان عبد الله الدوخي
جامعة الملك سعود - الرياض

القافلة: يسرنا أن نسهم في تحقيق هذا الهدف، وستصلكم المجلة بانتظام، إن شاء الله، بدءاً من هذا العدد.

تعقيب: ملف الطباعة

بعد الاطلاع على القافلة وما تحويه من مواضيع مهمة وشيقة.
وبعد دراسة معمقة لملف الطباعة المنشور في العدد الثاني من المجلد 52 بعنوان الطباعة طبعت عصرنا.
نود الإشارة إلى الآتي:
أولاً: يسرنا أن تقوموا بنشر ملف خاص عن تاريخ الطباعة والطباعة المعاصرة وآفاق التطور الذي حصل لهذه المهنة.
ثانياً: بالنسبة إلى أقدم المطابع الموجودة في لبنان، فقد ذكرتم المطبعة الكاثوليكية والمطبعة الأمريكية (1875م)، علماً بأن مطبعة صادر كانت من أقدم المطابع وتعرف آنذاك باسم "المطبعة العلمية" أسسها السيد إبراهيم صادر سنة 1863م. ونرفق لكم بعض الإثباتات المصورة التي تؤكد أن مطبعتنا قديمة جداً، غير أننا تعرضنا خلال الأحداث الأليمة إلى حادث أدى إلى احتراق الأرشيف الخاص بنا.
آملين لكم ولمجلتكم دوام التقدم والازدهار.

إدارة مطبعة صادر
بيروت

شهرية وكل شهرين

أثني على جهودكم الكبيرة في إظهار مجلتنا بهذا الثوب الراقي. ولا أخفي عليكم حزني - واسمحوا أن أقول لكم ذلك لأنه نابع من القلب لأني لم أعد أطالعها كل شهر.
لقد كنت في لهفة وشوق إليها عندما كانت شهرية، وتضاعف شوقي إليها الآن، لما تختارونه للنشر من مواد متنوعة تمثل غذاءً لتنمية الفكر وارتقاءً بمستوى الثقافة. لقد صارت القافلة اليوم على أيديكم منافساً قوياً لأرقى المجلات الثقافية الجامعة..
حفظكم الله وسدد خطاكم على الطريق الصحيح.

حسني عبد المعز عبد الحافظ
الدقهلية - مصر

التعاون مع الناشرين

وصلنا العدد الأخير من القافلة، ونود أن نتوجه بالتهنئة إلى الفريق العامل إدارةً وكتابةً وإخراجاً وتنفيذاً على هذه الطلة الجميلة، وكل المواضيع القيمة والمتنوعة، وعلى جدية التعاطي بقضايا القارئ، أكان رجل أدب أم علم أم نشر أم ثقافة.
ونود إعلامكم بأننا في دار التراث العالمي نهتم بنشر الكتب والقصص ووسائل الإيضاح التي تصب حصراً في خانة تعليم الإنجليزية في المجتمعات العربية، ونرسل لكم بعض النماذج للاطلاع على قائمة منشوراتنا التي تخاطب التلاميذ من صفوف الروضة إلى نهاية المرحلة الثانوية.

دار التراث العالمي
بيروت

القافلة: نشكركم على تهنئتكم الرقيقة ونأمل أن تكون رسالتكم بداية علاقة تعاون معكم ومع كل دور النشر في الوطن العربي.

على قدر أهل العزم

أبارك لكم هذا التطور المذهل في إعداد وإخراج القافلة الغراء، متمنياً لكم مزيداً من التقدم والنجاح الذي لا غرابة فيه لأنه كما قال المتنبي:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم

وأعني بهذا التطور الذي لمسته في العدد الأخير. وأرجو أن تتفضلوا بإرسال مجلتكم إليَّ بانتظام، لأنني من قرائها الدائمين، ولكني أحصل عليها عن طريق الإعارة من أحد زملائي في العمل. وأرغب في أن تكون عندي نسختي الخاصة، لأحملها إلى عائلتي لتطلع على ما فيها من مواضيع شيقة.. ولو كنت أجدها تباع لاشتريتها، ولكن لا حيلة .

عبد المحسن عبد الله العبيدي
بريدة - القصيم

القافلة: شكراً على رسالتك، وسيصلك عدد خاص بك من القافلة بانتظام بإذن الله.

صفحات القافلة

بداية يطيب لي أن أحييكم لجهودكم الحثيثة المخلصة التي تبذلونها في سبيل إخراج القافلة بهذا الشكل المتميز، ويطيب لي أيضاً.. بل أجد لزاماً على نفسي أن أحيي المجلة نفسها للرسالة العظيمة التي تؤديها، إذ باتت منارة للعلم والثقافة في أرجاء الوطن العربي. والحقيقة أن الطباعة الفاخرة والإخراج الرائع الذي يغلف موضوعات في غاية الجدية والرصانة بأقلام كتاب كبار.. كل ذلك يجعلني أترقب صدورها بكل لهفة، وأحرص على معاملة كل صفحة من صفحات المجلة بكل ما تستحقه من العناية.. فصفحاتها كما أقول دائماً أنعم من بشرة طفل، ولذلك وجب الحرص عليها والعناية بها أثناء تقليبها.

د. وحيد محمد مفضل
معهد علوم البحار - الإسكندرية

سرور بالاختلاف

سررت عندما عادت القافلة لتصلني بعد فترة انقطاع دامت عدة أشهر، وازداد سروري برؤية نسختها الجديدة التي تختلف عن نسخها القديمة من حيث عدد الصفحات والمواد المختلفة.
فأشكركم وفريق التحرير على ما تبذلونه من جهود كبيرة في تطور هذه المجلة وإخراجها على أحسن صورة، ولتوزيعها على القراء داخل المملكة العربية السعودية وخارجها، وأسأل الله عز وجل أن يتقبل عملكم ويجزيكم أحسن الجزاء.

منصور أحمد عريف الرحمن
بنغلاديش

عسل القافلة

عادة، يفرض الجيد ذاته دون جهد. وكانت القافلة منذ سنوات مضت ترافقني على الرغم من الصعوبة التي أواجهها في الحصول عليها. ولكن جمالها في صعوبة تناولها. ثم، لا يخفى عليَّ ولا على غيري من المتابعين لها ما آلت إليه القافلة في الآونة الأخيرة. فهذا التميز ليس بمستغرب عليكم، فأنتم أشبه بالنحل الذي يتعب في التنقل بين الأزهار لينعم الغير بالعسل.
فشكراً لكم، وهنيئاً لنا عسل القافلة.

نوره بنت سعد الأحمري
الدمام

نهاية الاستعارة

أرجو قبول إشتراكي في مجلتكم الموقرة لأنني من أشد المعجبين بها، ومن قرائها منذ عدة سنين ولكن عن طريق استعارتها من زملائي. لهذا سوف أكون من الشاكرين إذا تكرمتم عليَّ بنسخة خاصة بي. مع تمنياتي لكم بالنجاح والتوفيق.

إبراهيم بركات حصو
المسكة - سوريا

القافلة: تم إدراج اسمك على لائحة المشتركين وستصلك القافلة بانتظام إن شاء الله.

اقتراحات

بعد الشكر على الجهود الكبيرة التي تقومون بها في سبيل الارتقاء بالمجلة نحو الأفضل، أود أن أتقدم ببعض الملاحظات والاقتراحات آملاً أن تنال قبولكم:
1- أن تخصصوا باباً لذكر أسماء المقالات والمساهمات التي ترد إليكم كي يتم التأكد من وصولها إلى المجلة.
2- يبدو لي أن ثمة تكراراً في التنويه بمحتويات المجلة التي ترد في محطات العدد ثم في رسالة المحرر، وأخيراً في الموضوع نفسه. في حين أن مواضيع المجلة ليست طويلة ومن الممكن قراءتها والتعرف عليها بسهولة من دون هذه التلخيصات..
3- أرجو أن يكون اسم كاتب المقال إلى يسار الصفحة كي يبدو بارزاً وواضحاً.
4- العودة إلى ذكر المصادر والمراجع في آخر كل مقال.
5- تخصيص باب جديد لأسئلة القراء حول مختلف المواضيع في اللغة والأدب والفكر. وعلى سبيل المثال: الفرق بين السنة والعام، وبين المشكلة والمسألة، والفرق بين الرقم والعدد.
6- نشر مواضيع تتعلق بالصحة العامة والتغذية والوقاية من الأمراض.
7- العودة إلى إصدار المجلة شهرياً.

أحمد محمد جواد محسن
دمشق - سوريا

"لنحفظ أبناءنا للوطن" تعقيب

حمل العدد الثالث من القافلة مقالاً بعنوان "لنحفظ أبناءنا للوطن" بقلم رئيس التحرير. وحيث أن الموضوع مهم وشيق أود أن أعلق عليه بالآتي:

لقد حمّل المقال الأسرة، والأسرة فقط مسؤولية تربية الأبناء. ولا شك أن الإسلام حمّل الآباء والأمهات مسؤولية كبرى في تربية الأبناء وإعدادهم الإعداد الكامل لتحمل أعباء الحياة.

إن رئيس التحرير يريد أن تقوم الأسرة بدورها في تربية الأبناء وفقاً لما حدده الشرع السماوي والسنة النبوية. ولكن، هل سألنا أنفسنا الأسئلة التالية:
- هل لدى الأبوين ما يكفي من العلم بعظم مسؤولية تربية الأبناء؟
- هل أدخلنا في مناهجنا الدراسية مادة تسمى التربية الأسرية؟
- هل لدينا من المعلومات والدراسات ما نبني عليه لاتخاذ قرارات لصالح الأسرة وأفرادها، مثل: الغنى، الفقر، العلم، الجهل، وباقي العوامل المؤثرة على سلوكيات الأسرة وأفرادها؟ أم مازالت أحكامنا وقراراتنا الفردية والجماعية تمثل ردود فعل فقط؟

وأيضاً، هناك شركاء أساسيين للأسرة منهم:
- المدرسة وفلسفتها وأهدافها والاتجاهات الفكرية للعاملين فيها والقائمين عليها.
- الشارع وجماعة الأقران، وما يحمله هؤلاء من سلوكيات إيجابية وأخرى سلبية.
- المجتمع ومؤسساته مثل الجمعيات الدينية والإعلام المرئي والمسموع والأندية الأدبية والرياضية وغير ذلك مما يستحيل حصره.

إذن، ليست الأسرة هي الوحيدة المسؤولة عن تربية الأبناء.

محمد بن سالم العطاس

قافلة القرّاء

ما فاتكم في ملف "القهوة والشاي"

استوقفني في ملف القهوة والشاي المنشور في العدد الثالث من المجلد 52، تزامن انتشار القهوة والشاي عالمياً وبفارق لا يزيد على العشر سنوات فيما بينهما (النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي). وأعتقد أنه فات فريق التحرير ملاحظة هذا التزامن وتفسيره.

إن الرواج العالمي لاستهلاك القهوة والشاي والذي حصل دفعة واحدة وكأنه انفجار عمّ عواصم العالم دفعة واحدة لا يعود إلى صدفة، بل جاء تلبية لحاجة تاريخية، لم تكن موجودة سابقاً. فحتى القرن السادس عشر، كان مفهوم التوقيت في أوروبا يقتصر على محطتين: الشروق والغروب.

ولكن في العقد نفسه الذي افتتح فيه أول مقهى في لندن، تم اختراع أول ساعة ميكانيكية تحدد الأوقات على مستوى الدقائق، بعدما كان غاليليو قد اكتشف حركة رقاص الساعة وانتظامه قبل عقود معدودة. فهل هذا التزامن يعود أيضاً إلى صدفة؟

الجواب هو حتماً لا. فمع التطور الذي طرأ على حياة الإنسان، والصناعة مع كل ما تتطلبه من دقة في التوقيت وتزامن مراحلها ظهرت الحاجة إلى احترام الأوقات المحددة أكثر بكثير مما كان عليه الحال في السابق. الأمر الذي أدى بدوره إلى حاجة أخرى تتعلق بجاهزية الإنسان الجسدية والذهنية في أوقات محددة. من هنا كانت سمعة القهوة والشاي كمنبهين يبعدان الخمول، ويبعثان النشاط والحيوية واليقظة أشبه بجواز سفر وصل إلى صاحبه في الوقت الملائم. وهذا وحده يفسر تزامن كل هذه الأمور التي لا علاقة ظاهرية فيما بينها.

ولعل رواج القهوة في البلاد العربية قبل أوروبا بقرنين أو ثلاثة، قابل للتفسير بالإشارة إلى أن العرب كانوا يمتلكون قبل آنذاك مفهوماً أكثر تطوراً لأهمية احتساب الأوقات بدقة، وكانوا يشعرون بالتالي بالحاجة إلى تكييف أجسامهم التي يجب أن تكون نشطة في أوقات محددة، فكانت القهوة المنبه المساعد على ذلك.

جميل صالح العلي
اللاذقية - سوريا

خدمة القرّاء

أهنئكم من الأعماق على هذا الإنجاز الرائع في إخراج مجلة القافلة بهذه الصورة المميزة، ولتنوع مادتها من خلال هذه الزيادة في عدد الصفحات التي تلبي رغبات القارئ في كل مكان ومهما كانت اهتماماته. مع التمنيات لكم بالنجاح الدائم والتوفيق المستمر، وللمجلة العزيزة المزيد من التقدم الصحفي الهادف إلى خدمة الوطن والمواطنين والقرّاء.

محمد عبد الواسع حوجي
المدينة المنورة

تنوّع أقل

أود أن أعرب لكم عن الشكر بعدما وصلني العدد الأخير من القافلة، وأسأل الله أن يسدد خطاكم ويوفقكم لمنفعة الناس وطالبي المعرفة. والحق أني أجد في مجلتكم تنوعاً في المواضيع، إلا أنني لمست أن التنوع في السابق كان أكبر، وهذا من باب حرصي على بقاء القافلة الأولى بين زميلاتها من الدوريات.
إن هذا لا يعني أن الأعداد الأخيرة سيئة، لكنني حين أجلس مع الزملاء أفاخر بأن القافلة تصلني باستمرار وأدافع عنها، وأريدها أن تبقى كما عودتنا. ومرة أخرى، لا أنكر الجهد المبذول سواء لجهة الموضوعات المطروحة وتنوعها، أو الإخراج الفني الرائع الذي يجعلك تقبل عليها بشغف.

أياس عطية العيادي
عمان - الأردن

المرأة العاملة

نشكر لكم إرسال المجلة إلينا بانتظام، ونحييكم على المواضيع الشيقة المفيدة التي تتناولونها. وأخص بالذكر صفحات "الفاصل المصور" التي تميز المجلة عن باقي المجلات.
لكن لنا عليكم عتاباً، وهو أن المجلة لا تفرد ما يكفي من الصفحات لمعالجة مواضيع تتعلق بعمل المرأة السعودية. فعدد السعوديات العاملات أصبح اليوم أكبر من أي وقت مضى، ونعتقد أنه يستحق مزيداً من الاهتمام من قبلكم، لأن نتيجته سوف تكون ذات فائدة للجميع.

حسانة نسيم الحاج علي
جدة

القافلة: نرجو أن تجدي في هذا العدد بعض الصفحات التي تلبي رغبتك، وسوف نحاول باستمرار زيادة المساحة المخصصة لشؤون المرأة العاملة.

عودة بعد انقطاع

مرة أخرى أهنيء قراء القافلة على المستوى الرائع الذي وصلت إليه، وعلى هذه الطفرة العظيمة التي حدثت للمجلة.. وأشد على أياديكم مباركاً هذا الجهد الرائع إذ أصبحت القافلة عروس مجلاتنا الثقافية.. فقد طالعتها عند الصديق الشاعر عبد الستار سليم والذي تصل إليه المجلة بانتظام، بينما توقف وصولها إلي منذ سنوات، من دون أن أدري سبباً لذلك. لهذا أرجو أن ترسلوا المجلة على عنواني.

عزت الطيري
نجع حمادي - مصر

القافلة: شكراً لرسالتك وستصلك القافلة على عنوانك بدءاً من هذا العدد بإذن الله.

تعقيب: موضوع القدس

سعدت جداً بالعدد الثالث من القافلة، الذي جاء كالأعداد السابقة حافلاً بالصور الجميلة والموضوعات المشوقة. فقد أثار اهتمامي أكثر من موضوع في هذا العدد، مثل "زيوت التشحيم" الذي فاجأني بالمعلومات الجديدة التي ذكرت فيه، ولم أكن أظن أن زيت المحرك بهذا التنوع. لكن أكثر ما أعجبني في العدد المذكور هو التحقيق عن سائق الليموزين سلمان الناصر فهذا التحقيق أبرز الصورة الإنسانية لشخص مكافح وصبور، قضى سنوات طويلة يعمل سائقاً ليعيل عائلته ويقطع بها درب الحياة ليوصلها إلى بر الأمان.
أما موضوع إذاعة القدس فقد أمتعني بما فيه من معلومات تاريخية تؤكد على عروبة فلسطين وعلى رقي شعبها الذي تتهمه الصهيونية بأنه كان عبارة عن شعب جاهل عندما احتلت أرضه.

فادي مصطفى
بيروت

القافلة.. للعربية

بعد التحية والاحترام (الكثيرين) ألتمس من سيادتكم أن تبعثوا لي مجلة القافلة لأنها مجلة كاملة متكاملة فيها مواضيع شيقة ومفيدة بشكل جيد، تقدم خدمة كبيرة وخاصة لنا نحن في المغرب العربي والجزائر بشكل خاص، لأننا نفتقد إلى العلوم باللغة العربية. فلهذا نرجو أن تبعثوا لنا مجلتكم الغراء في أقرب وقت ممكن سائلين من الله أن يجزيكم خير الجزاء..

الحكيم أبو طالب عبد الله
المنيعة - الجزائر

القافلة: تعتز القافلة بنشر العربية حيثما احتاج القراء إلى ذلك، وستصلك أعدادها تباعاً إن شاء الله.

عاشقة الشعر

المتفوقون جداً... أسرة تحرير قافلة الضوء...
أهنئ نفسي لأني قارئة القافلة، المجلة المغايرة تماماً...
فقد أصبح العدد الضخم - عدد الاحتفال الخمسيني - من مقتنياتي الغالية وأدواتي الجميلة.
مع رسالتي الأولى إليكم نصاً شعرياً، ما كنت أجرؤ على إرساله، إلا حينما لمحت "المواهب الشابة" فشكراً على هذا الحضن الذي ترتمي فيه أقلام الصغار.

أنا لا أريد سوى فضاءات الكتابة
لا أبتغي داراً.. ولا أهوى الرتابة..!
أنا أشتهي حرفاً.. وإيقاعاً له نبض المطر
...
أعشق الشعر كثيراً..
أكتب الشعر قليلاً..
وأغنيه هديلاً وهديراً وخريراً..
إسألوا عني جوازات السفر
ومفاتيح القمر..
سيقولون بأني أشتهي حرفاً وإيقاع مطر..
أعشق الشعر كثيراً
أكتب الشعر قليلاً..
وأغنية هديلاً .. وهديراً وخريراً!!

بدور محمد العوين
حوطة بني تميم

نعمل لغدنا

المتقنـون

الإتقان قيمة تكاد تغيب عن دهاليز الوظيفة النمطية، ولا بد من أن يعاد النظر في هذه القيمة المهمة من أجل الغد الذي يتهددنا بضبابيته. كما لا بد من أن تفحص هذه القيمة في العمق بدلاً من أن تطرح كعظة سرعان ما تتبخر بمجرد أن ينفض مجلس الحديث.

هناك شكوى حقيقية من تواري قيمة الإتقان خلف القشور والحد الأدنى للأداء. فالموظف النمطي، ينظر إلى ما بين يديه باعتباره عبئاً يريد أن يتخلص منه بأية طريقة.

وتتعدد هذه الطرق...
فمنها أن يقذف الموظف ما بين يديه (بربع طبخة أو نصفها) إلى يدي موظف آخر.

ومنها أن يكتفي بإنجاز ما طلب منه بالحد الأدنى من المواصفات المطلوبة، في حين أنه من الممكن رفع سقف هذه المواصفات لتكون النتيجة النهائية أفضل مما كان متوقعاً لها.

وقد تكون الطريقة في التخلص من عبء المسؤولية بالتحرك على طريق تنفيذها خطوتين بينما يتطلب ذلك خمس خطوات.

والسائد أن مثل هذا الموظف (صاحب الخطوتين) يُحمّل الآخرين والظروف المحيطة به مسؤولية عدم إتقان عمله. فهو بحث ولم يجد شيئاً، أو اتصل ولم يتلقَّ رداً، وحاول لكنه لم يوفق. وما إن تدقق فيما قام به من خطوات تكتشف أنه لم يبذل إلا اليسير من الجهد الذي يفترض فيه أن يبذله لينجز عمله بالصورة المطلوبة.

الإتقان قوة ضغط داخلية يجب أن تبقى ناشطة منذ بدء العمل وحتى إنجازه لتكون النتيجة على المستوى الذي يحقق غاية العمل المثلى.

ما رأيكم لو فتحنا الباب واسعاً لتشريح قيمة الإتقان: فهماً وتطبيقاً.؟

سبعون عاماً من عمر النفط

المدن تتمدد عمراناً وسكاناً

سبعون سنة مرت من عمر البترول في المملكة، غيّرت ملامح المكان الذي منَّ الله عليه بهذه الثروة العصرية النفيسة. عشرات المدن ومئات القرى انعكست عليها مداخيل البترول نمواً وعمراناً والتصاقاً واضحاً في مدنية اليوم ومكتسبات التحديث والتطوير.

في هذا التقرير يلتقط زميلنا **عادل الصادق** الخيوط المتشابكة لأثر البترول في ملامح ومدن المنطقة الشرقية، المنطقة التي أطلقت صناعة النفط في المملكة في العام 1938م، لتعم بخيرها أرجاء المملكة.

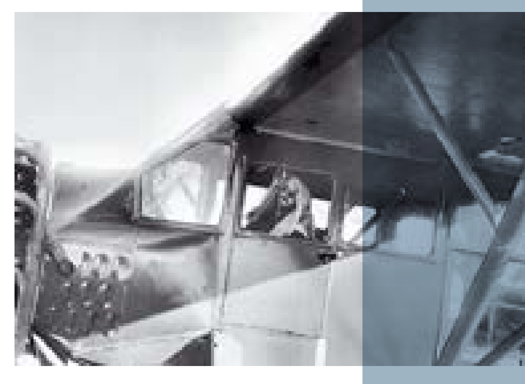


عشر سنوات.. عشرون.. سبعون..
والقرية الصغيرة صارت حاضرة عامرة،
مدينة الخبر نموذجاً

بين ما قبل صناعة النفط في المملكة وما بعدها تغيّرات متسارعة تعبّر عنها دراسة علمية أجرتها الإدارة العامة للتخطيط العمراني في أمانة مدينة الدمام. فـ "بعد اكتشاف البترول تحولت وظيفة المنطقة الشرقية من الزراعة وصيد الأسماك واللؤلؤ والرعي إلى صناعة البترول". هذه وظيفة "نشأت بفعلها مدن صناعية، وانتشرت أنشطة تجارية، وازدهر قطاع الإنشاء والخدمات". ولم يكن كل ذلك ليحدث من دون وجود بشرٍ يعملون ويحتاجون إلى السكن والاستقرار، وبما أن الوجود السكاني، في المنطقة، كان محدوداً قبل النفط؛ فإنه، بعد ذلك، صار له شأن آخر بدأت قصته يوم تدفق النفط من بئر الخير، بئر الدمام السابعة في شهر مارس من عام 1938م.

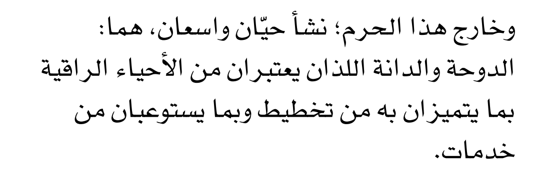
الظهران.. كانت البداية

حين تدفّق النفط من بئر الدمام السابعة (الموجودة فعلياً في منطقة الظهران) لم يكن في المكان شيء يصلح للسكن سوى أكواخ خشبية يأوي إليها



الجيولوجيون العاملون في التنقيب. هذا هو حال الظهران آنذاك. لكن الأمر تغيّر بعد ذلك؛ حين سارعت أرامكو إلى إنشاء ثلاثة أحياء رئيسة، استوعب أحدها العمّال، والثاني خُصّص للموظفين، أما الثالث فكان لمديري الإدارات وكبار موظفي الشركة. هذه الأحياء كانت نواة التطوّر العمراني الكبير والمدهش الذي عمّ البلاد لاحقاً. وفيما يخص الظهران؛ فإنها أخذت تتمدد عاماً بعد آخر خارج نطاق الأحياء الثلاثة، وتوسّعت لاستيعاب المباني الإدارية لشركة أرامكو السعودية، والأحياء السكنية، والخدمية، وكوّنت لنفسها حرماً خاصاً بمراكز عمل الشركة المتعددة والمتشعبة.

وخارج هذا الحرم؛ نشأ حيّان واسعان، هما: الدوحة والدانة اللذان يعتبران من الأحياء الراقية بما يتميزان به من تخطيط وبما يستوعبان من خدمات.



الظهران قبل ستة عقود.. واليوم

ولأن القصة بدأت مع النفط وتسايرت معه؛ فقد أدى اكتشافه إلى ظهور صناعة بعيدة المدى، واحتاجت هذه الصناعة إلى أنشطة تجارية وصناعية مساندة أيضاً، واحتاج كل ذلك، بدوره، إلى أيدٍ عاملة؛ فكان أبناء المنطقة الشرقية قوة العمل الأولى التي انخرطت في خطوط الإنتاج، لكن العرض تفوّق على الطلب في الحاجة إلى الأيدي العاملة وهو ما جعل من "الشرقية" منطقة جذبت الأيدي العاملة من كافة مناطق المملكة، وبعض دول الخليج أيضاً، فضلاً عن الفنيين والخبراء والإداريين القادمين من دول أجنبية للعمل في أرامكو، أو معها عبر شركات ومؤسسات أخرى. ومن الطبيعي أن تضيق الأحياء (الظهرانية) الثلاثة بالآلاف المؤلفة من البشر، القادمة تباعاً إلى هذه البقعة النفطية الجديدة.

الخُبر.. الخيار الأول

ولمواجهة هذا التدفق البشري كان الخيار الأقرب للظهران هو "الخبر" التي لم تكن سوى قرية

كورنيش الخبر: حدائق معلّقة فوق البحر

صغيرة لم يمضِ على نشوئها سوى سنواتٍ يسيرة على يد أفراد من قبيلة الدواسر قدموا إليها من البحرين عام 1923م، وبنوا بيوتاً ريفية وامتهنوا الصيد والغوص. وظهرت آنذاك الحاجة إلى أن تتحول قرية "الخبر" إلى مدينة، فأصدر الملك عبدالعزيز، رحمه الله، إذناً بإنشائها بتاريخ 23 يوليو 1939م، تضمن خطوطاً عريضة لنظام منح الأراضي، وبعض مفردات تخطيط المدينة المستقبلي، ووجه الأمر الملكي بإزالة بيوت الجريد والخُوص، ومنع إقامتها إلا في مواقع من المنطقة الجنوبية، بعيداً عن منطقة أرامكو. ونصت المادة الرابعة عشرة على تطبيق نفس "التعليمات على بلدة الدمام".

والحقيقة هي أن أهمية الخبر، كموقع، برزت قبل هذا التاريخ؛ ففي سنة 1935م اختير ساحلها لبناء أول رصيف من صخور البحر والحجارة لاستقبال المواد والأغذية والمواد الأخرى المستوردة من البحرين إلى مخيم التنقيب الصغير في جبل الظهران.

وقد تشابكت أسباب الحياة بين الخبر والظهران على المستوى الإداري والسكاني والتجاري.
وفي سنة 1957م أعدت أرامكو مخططاً استشارياً لمدينة الخبر، وانعكس النمو المتسارع الذي استحدثته شركات البترول في الظهران على الخبر طردياً. وبمجرد دخولها عقد الثمانينات الهجرية (الستينات الميلادية) كانت الخبر قد تشكلت شخصيتها الجغرافية كمدينة تجارية واعدة.



حين لم يكن هناك سوى شارع واحد

واستقطبت المدينة رجال الأعمال الطامحين الذين قدموا من مناطق مختلفة من المملكة ومن العالم أيضاً، ليجعلوا – في سنوات يسيرة – من الخبر مدينة مرموقة.

ولم تمض الخطط التنموية الخمسية الثلاث حتى أنهت الخبر مراحل نضجها العمراني والتجاري الذي جعلها إحدى المفاخر التنموية في المنطقة الشرقية، تميزها واجهة بحرية جميلة تشكل جزءاً من الواجهة البحرية في المنطقة الشرقية. وقد توسعت رقعتها العمرانية لتقترب من 7 آلاف هكتار، يسكنها أكثر من 200 ألف نسمة.

من مسيرة البناء في الدمام وكورنيش المدينة الخلاب

المصفاة تصنع مدينة

رأس تنورة، هذه المدينة الذائعة الصيت في أسواق النفط العالمية، لم تكن شيئاً مذكوراً قبل اكتشاف النفط، على الرغم من وجود وثائق تفيد بأن "رحيمة" – وهو الاسم الرديف لها – كانت عام 1856م واحة خضراء. وحين أوصى الجيولوجيون باختيارها موقعاً لمصفاة التكرير عام 1938م عمدت أرامكو إلى تجهيز حي سكني يستوعب موظفي المصفاة. ثم تطور الحي السكني تبعاً لتطور العمل في المدينة النفطية الناشئة. وما إن أطل عام 1958م حتى أصبح للمدينة شوارع فسيحة وأرصفة مشاة ومرافق خدمية. وفي السنوات اللاحقة نشأت أحياء سكنية خارج حرم المنطقة النفطية، وتواترت الهجرات إلى شبه الجزيرة – وهو الوضع الجغرافي الذي تتكون منه – وساعد برنامج تملّك البيوت الذي تطبقه أرامكو السعودية في نموها، إلى أن تجاوز عدد سكانها 65 ألفاً ينتسب ثلثا العاملون منهم إلى الشركة. وتبلغ مساحة رأس تنورة حالياً 290 كيلومتراً مربعاً، وتحتوي على 7500 وحدة سكنية، و2500 وحدة تجارية تتوزع على ستة أحياء.

من بنود الأمر الملكي الخاص بإنشاء مدينة الخبر عام 1358هـ

- «يشترط مباشرة البناء في الأرض الممنوحة بعد مضي ستة أشهر من تاريخ التسجيل وأن لا تمر سنتان إلا ويكون البناء قد أكمل وإن مضت المدة الأولى ولم يشرع في البناء تسحب الرخصة وإذا أمضى المدة الثانية دون أن يكمل البناية فللحكومة الحق في سحب الرخصة وبيع الأنقاض المقامة عليها إلى الغير.»

- «المساكن التي تكون في حدود الشوارع ولمصلحة التنظيم تزال ويعوض أهلها بدلها أرضاً أخرى وتدفع لهم المساعدة التي تراها الحكومة تفضلاً منها.»



أين ذهبت الصحراء؟ من أين أتت الحدائق؟

بقيق.. نشأة من الرمال

تقع بقيق في منطقة تعرف باسم "الجافورة" تمتد للربع الخالي. وقد بدأت أهميتها تظهر سنة 1940م عندما اكتشف فيها حقل زيت يعتبر ثاني أكبر حقل في منطقة الامتياز. وعلى إثر ذلك أقيمت مرافق سكنية وصناعية، تدرجت عبر عقود زمنية عديدة حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن. وبين عامي 1956 – 1960م، وزعت شركة أرامكو أراضي سكنية على الموظفين ليبنوا عليها بيوتهم، فارتفع عدد السكان في ذلك الوقت إلى 4000 نسمة من أصل 600 نسمة. ثم واصلت المدينة نموّها المطرد، عمرانياً وسكانياً، إلى أن تجاوزت مساحتها 800 هكتار يعيش فيها قرابة 50 ألف نسمة.

الدمام.. التمدد في كل الجهات

الدمام مدينة لها قصة قد تكون مستقلة، ولكنها ذات صلة بالنفط أولاً وأخيراً. فهي لم تكن سكناً قبل أن يأتي إليها الدواسر عام 1923م لينشئوا قريتهم. وقد استدعى تزايدهم فيها آنذاك إنشاء بلدية لتخدم شؤونهم. وبعد تدفق النفط توافدت عليها موجات القادمين من مناطق المملكة للعمل في أرامكو، وغيرها من المؤسسات الناشئة في ظل هذه الصناعة الجديدة. وفي عام 1947م أعدت الشركة مخططاً للمدينة بناءً على طلب من أمير المنطقة الشرقية، وقتها، الأمير سعود بن عبدالله بن جلوي. ولكن التطور الأهم في المدينة حدث متسارعاً بعد انتقال الإمارة من الأحساء إليها عام 1950م. فقد أعطاها ذلك ثقلاً إدارياً، وأهّلها قربها من الظهران، لتلبية حاجة الشركة حين أرادت ترتيب أوضاع موظفيها وعمّالها السعوديين، فباشرت في بناء حيّ سكني جنوبيّ الدمام للراغبين منهم في السكن. وخلال عقد الستينيات بلغ عدد المنازل التي بنتها الشركة 1700 منزل. هذا العدد كوّن الحي الذي ما زال معروفاً بـ "مدينة العمّال"، وهو اسم موجود في غير الدمام من مدن المنطقة أيضاً.

أخذت الدمام تتسع، وسكانها يتزايدون. تآكلت الرمال من حولها وحلّت محلها الأحياء السكنية والتجارية. اتجه العمران صوب البحر أيضاً. ولم يُطل عام 1974م، حتى تجاوز سكانها 124 ألف نسمة. وحين أجرت الدولة مشروع التعداد السكاني عام 1993م اقترب عدد السكان من نصف مليون، ووفق توقعات التعداد الرسمية فإن عدد سكان مدينة الدمام وحدها سيقترب العام القادم (2004م) من ثلاثة أرباع المليون نسمة.

الدمام.. من قرية متواضعة إلى مدينة التحمت في توسعها بالخبر والظهران والقطيف لتشكل حاضرة كبرى

والدمام لم تعد قرية، بل لم تعد مدينة سكنية، هي أيضاً مركز تجاري تتوزع فيه المجمعات التجارية والأسواق والمؤسسات الخدمية، وهي مدينة تتبعها مدينتان صناعيتان تشاركان في دورة الاقتصاد.
أما حدودها الجغرافية فلم تعد محصورة في الأرض السبخة التي كانت عليها في الخمسينيات الميلادية من القرن الماضي. لقد وصلت حدودها الجغرافية إلى مطار الملك فهد الدولي بالدمام شمالاً. وزحفت شرقاً فالتحمت بالخبر.. وزحفت جنوباً فالتحمت بالظهران.. وزحفت شمالاً فالتحمت بالقطيف.. وزحفت غرباً فالتهمت رمال الصحراء..!

ولا تزال المخططات السكنية والتجارية تتوالد فيها وحولها، ولأسباب مختلفة أصبح "حاضرة الدمام" اسماً يطلق على عدد من المدن ككتلة عمرانية واحدة؛ هي: الدمام والخبر والظهران والقطيف.

الجبيل.. عملاق الصناعة البتروكيماوية

بعد أقل من ثلاث سنوات هجرية من الآن يبلغ عمر مدينة الجبيل قرناً كاملاً، فقبل 27 رمضان عام 1327هـ (1910م) لم تكن هذه الجبيل موجودة كمنطقة آهلة، وهي تبعد عن الدمام بحوالي ثمانين كيلو متراً. ومدينة الجبيل هي المحطة الأولى التي استقبلت الرعيل الأول من الجيولوجيين والمنقبين عن النفط، الذين وصلت أفواجهم الأولى إليها في 1933/9/23م.

كانت قرية صيد متكومة في رأس بحري. وتلك القرية التي لم تكن مساحتها تتجاوز كيلومتراً مربعاً واحداً انفجرت تنموياً، والتهمت آلافاً مؤلفة من الكيلومترات المربعة، لتكون قادرة على استيعاب واحدة من أهم القلاع الصناعية البتروكيماوية في العالم. والصناعة – وصناعة النفط تحديداً – وراء كل ذلك. فقد أدت المدينة (هي وشقيقتها ينبع على ساحل البحر الأحمر) دوراً رئيساً فيما اعتزمته الدولة من تنمية صناعات تعتمد على المواد الهيدروكربونية. وفي شهر ذي القعدة من عام 1397هـ (1977م) افتتح الملك خالد، رحمه الله، المدينة الصناعية في الجبيل؛ مؤذناً بميلاد مرحلة فاعلة من مراحل الصناعة في البلاد، إذ دخلت (سابك) السوق الصناعية عبر



مجموعة من المصانع العملاقة، منها: مجمعات البتروكيماويات المعتمدة على الإثلين، ومصانع الميثانول، واليوريا، والحديد والصلب، وغيرها.

هذا النهوض الصناعي تطلب توسعاً تجارياً تمثل في قيام المؤسسات والشركات الخاصة، والخدمات المساندة لنهوض مدينة صناعية. وبدوره تطلب التوسع التجاري توسعاً في النطاق العمراني لاستيعاب الزيادات المطردة من السكان القادمين إلى الجبيل من أجل العمل، من داخل المملكة أو من خارجها. فضلاً عن تزايد عدد السكان الأصليين وحاجتهم إلى مساحات عمرانية جديدة. وتقع الأحياء السكنية في مدينة الجبيل في منطقة ساحرة تطل على الخليج العربي شمال غرب المنطقة الصناعية وتبلغ مساحتها أكثر من 10 آلاف كيلومتر مربع، ويتجاوز عدد سكانها 200 ألف نسمة.

النفط بنى مدناً لم تكن موجودة، وخيره تدفق إلى الحواضر القديمة وأعاد صياغتها عمرانياً

القديم.. توسع وتطور

إذا كان النفط قد بنى مدناً لم تكن موجودة قبلاً وفرضت توابعه واقعاً ديموغرافياً جديداً في مواقع لم يكن فيها ما يكفي من أسباب الحياة والتعمير قبل تدفقه؛ فإن خيره تدفق إلى الحواضر القديمة، أيضاً، وأعاد صياغتها العمرانية على نحو لم تعرفه على امتداد تاريخها الضارب في القدم. وفي الأحساء والقطيف أكثر الملامح إشارة إلى هذه الحقيقة التاريخية.

تحتل الأحساء مساحة 534 ألف كيلومتر مربع وهي مساحة تعادل 24% من مساحة المملكة و67% من مساحة المنطقة الشرقية. وتضم أربع مدن رئيسة هي: الهفوف والمبرز والعمران والعيون، إضافة إلى ما يقرب من خمسين قرية. ويربو عدد سكانها على المليون نسمة. وقد عرف سكان الأحساء، تاريخياً، بالزراعة والتجارة اللتين صنعتا تاريخها الاقتصادي. وبعد ظهور النفط انجذب أهلها إلى وظائف أرامكو، وعلى الرغم من أن كثيراً منهم قد نزحوا إلى الدمام وبقيق والخبر والظهران؛ إلا أن الأحساء توسعت وتطورت، ودخلت مدنها وقراها حياة تجارية متنوعة أفرزت نتائجها على السكان والمساكن. كما استفاد موظفو أرامكو من برنامج تملُّك البيوت الذي تطبقه الشركة.

وتنطبق بعض تفاصيل هذا الواقع على القطيف التي اعتمدت، عبر تاريخها، على الزراعة والصيد والغوص والتجارة، واتكأت حضارتها على تركة قديمة من النشاط السكاني المتواصل. ففي منتصف الخمسينيات الهجرية من القرن الماضي لم تكن مساحتها العمرانية تتعدى 40 هكتاراً، لكن كتلتها العمرانية، اليوم، تحتل أكثر من 6 آلاف هكتار من المناطق المأهولة. ويظهر هذا التوسع في تداخل قراها القديمة بعضها ببعض ابتداءً من عام 1960م، إلى الحد الذي أصبحت فيه لصيقة تماماً بمدينة الدمام جنوباً. وما حدث في المدينة الأم، حدث في المدن الأخرى: سيهات، صفوى، تاروت، وحدث في القرى التي كانت ملمومة وراء الأسوار أو وسط غابات النخيل.

روافد التنمية تتشابك

لقد تشابكت الروافد التنموية الناتجة في مجملها من النفط الذي موّل عمليات البناء الشامل في البلاد، وتدفقت خيراته فيها على النحو الذي حقق الرفاه للإنسان السعودي. وإذا كان العمران شكلاً من أشكال النموّ؛ فإنه نهض وتطور بفعل الانتعاش الاقتصادي الذي تمثل في الفرص التي هيأتها الدولة كصندوق التنمية العقارية، وبرنامج منح الأراضي، وبرنامج تملك البيوت في أرامكو السعودية.

الصوَر: أرشيف أرامكو السعودية / المحترف السعودي

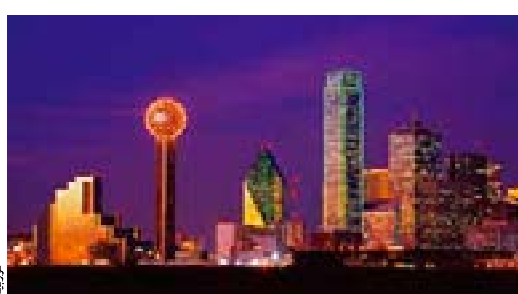



تكتمل مقومات المدنية الحديثة، وتستمر المسيرة



ملحقات

ومدن أخرى قامت على النفط

مدينة دالاس الأمريكية

لعب اكتشاف النفط في دول عديدة من العالم الدور الرئيس في نشوء مدن جديدة ونموها بسرعة صاروخية، نذكر منها على سبيل المثال مدينة ستافنجر النرويجية ومدينتي دالاس وهيوستن الأمريكيتين.

ستافنجر

شهدت مدينة ستافنجر النرويجية عبر تاريخها الممتد نحو 900 سنة طفرات اقتصادية متعددة كانت دائما ذات تأثير واضح في النشاط السكاني. ولكن ستافنجر لم تشهد في تاريخها طفرة كالتي بدأت قبل ثلاثين عاماً حين تم اكتشاف النفط، ولم تنته فصولاً بعد منذ تطوير حقول النفط المغمورة في بحر الشمال.

تقع ستافنجر، مدينة النفط النرويجية الأولى حيث مقار كبريات شركات النفط النرويجية بالإضافة إلى شركات المقاولات التي تعمل معها، في مقاطعة "روجلاند" جنوب غربي النرويج، وقد تأسست كمدينة في عام 1125م، وقد قفز عدد سكانها من ألفين إلى حدود الثلاثين ألفاً بعد ذلك بمائة عام نظراً لاتساع سوق الصيد وتجارته خاصة تعليب الأسماك بغرض التصدير.

دخلت ستافنجر عصر النفط في الستينيات من القرن الماضي، وبسببه أصبحت اليوم صاحبة أكبر نسبة نمو اقتصادي في النرويج. ففيها أعلى نسبة نمو اقتصادي في العالم، وأعلى نسبة توظيف (أقل نسبة بطالة) بين المدن النرويجية الأخرى. ويعمل في ستافنجر وحدها ما يصل إلى 7000 عامل وموظف في قطاع النفط مباشرة، وقد ارتفع عدد سكانها اليوم إلى 110 آلاف نسمة، يعمل منهم 72 ألفاً داخل المدينة نفسها.

هيوستن ودالاس عينان في رأس تكساس

من المدن التي ازدهرت في ولاية تكساس الأمريكية بسبب النفط مدينتا هيوستن ودالاس. وقد كانت هيوستن سابقة في مجال الاكتشافات النفطية منذ نهاية القرن التاسع عشر ولحقت بها دالاس في الثلاثينيات من القرن التالي.

هناك ثمة دلائل تشير إلى أن النفط استخدم في تكساس من قبل المستكشفين الإسبان منذ عام 1543م، ولكن الاستكشافات التجارية بدأت في عام 1866م حين تم اكتشاف بئر نفط صدفة أثناء حفر آبار للمياه كان إنتاجه لا يتجاوز عشرة براميل في اليوم، ولكنه جلب اهتماماً متزايداً باستكشاف المنطقة بحثاً عن النفط. ولم يبدأ القرن العشرين في ولاية تكساس الأمريكية وإلا وقد وصل إنتاجها من النفط إلى 836 ألف برميل وبذلك دخلت الولاية في عهد صناعي واقتصادي جديد غيّر التركيبة السكانية للولاية التي كانت قبله ريفية الطابع تعتمد على الزراعة وتربية وتجارة الماشية. وتوافد الناس من الأرياف إلى المدن لطلب الرزق من وراء الذهب الأسود ومع دخول الأربعينيات الميلادية صار نصف سكان تكساس يعيشون في المدن وصار تأثير النفط يصل إلى الملايين من سكان الولاية.

وفي الوقت الذي كانت فيه مدن شرق تكساس الأخرى بما فيها هيوستن التي بلغ عدد سكانها مع مطلع القرن 45 ألف نسمة تتمتع بطفرتها النفطية أثناء الكساد العظيم الذي حل بالولايات المتحدة في الثلاثينيات الميلادية، كان اكتشاف النفط في دالاس قد تأخر حتى عام 1930م ولكنه كان السبب الذي أنقذ المدينة من انعكاسات تلك الحقبة الاقتصادية المتردية في الثلاثينيات. فانتقلت أو تأسست في دالاس ثمان وعشرين مؤسسة ذات علاقة بالنفط في الشهرين الأولين من عام 1931م. وبدأت المصارف في إقراض العاملين في مجال النفط، وبعد فترة بسيطة تحولت دالاس إلى المركز الاقتصادي الأول لحقول النفط في شرق تكساس. وفي هذه الأثناء كانت هيوستن تتطور بدورها. فقد تم الانتهاء من إنشاء قناة مائية ليتم شحن النفط من خلالها، وبذلك بدأت مصافي النفط في الظهور قرب القناة. وفي عام 1948م اتسعت هيوستن لتبلغ مساحتها 216 ميلاً مربعاً. وفي السبعينيات الميلادية انتقلت أو تأسست في هيوستن 200 مؤسسة كبرى بمراكز رئيسة أو فروع مهمة.

وبحلول عام 1974م كانت دالاس الغنية بالنفط تمر بمرحلة مشابهة لهيوستن وإن كانت أقوى مردوداً، خاصة بعد إنشاء مطار دالاس الدولي، إذ أصبح في المدينة أكثر من 626 مقراً رئيساً لشركات بعضها من أضخم الشركات في الولايات المتحدة.

ويعيش اليوم في هيوستن أكثر من مليوني نسمة وقد قطعت هي ودالاس التي يسكنها أكثر من مليون نسمة أشواطاً طويلة عبر المائة والخمسين سنة الماضية من كونهما مناطق ريفية شبه خالية إلى اثنتين من أهم المدن الأمريكية، حتى أن مجلة "فوربز" وصفت دالاس كأفضل مركز تجاري بأمريكا الشمالية لسنتين متتاليتين في بداية التسعينيات.

ملمح من تاريخ المنطقة القديم

تستند المنطقة الشرقية إلى تاريخ ضارب بجذوره في القدم. ومنطقة الظهران، نفسها، دلّت الحفريات فيها على وجود آثار بابلية وأكدية وكيشينية. وهو ما يؤكد كونها منطقة حضرية بائدة. ويعزز ذلك بيت شعر قاله علي بن المقرب العيوني محفزاً قومه، في القرن السابع الهجري، يقول ابن المقرب:

والخط من صفواء حازوها فما
أبقوا بها شبراً إلى الظهران

وتقع صفوى على مسافة 40 كيلومتراً إلى الشمال من الظهران، وهذه المسافة مشغولة بتكتلات سكانية كثيرة أهمها القطيف، وسيهات، والدمام.

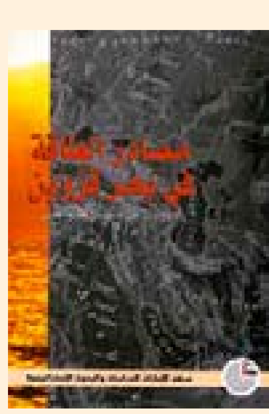
أما القطيف فقد كانت أكثر الحواضر الساحلية نشاطاً سكانياً وتجارياً إلى ما قبل منتصف القرن الهجري الماضي. وضمن حدودها الجغرافية تقع جزيرة تاروت التي تعود بتاريخها إلى الدولة الفينيقية، حسبما دلت التواريخ والآثار المكتشفة فيها. وضمن الجزيرة يقع ميناء دارين الشهير في التاريخ العربي.

ولا تقل الأحساء شأناً في عمقها التاريخي، ومنذ القدم كان المثل العربي يقول: "كجالب التمر إلى هجر" تعبيراً عن غناها الغذائي المتركز في التمور ومحاصيل الزراعة. لكن التاريخ يكشف عن قيام الدولة الجرهائية في الأحساء حوالىّ 500 ق.م، وقد اشتهر أهلها منذ القدم بالتجارة في الذهب والفضة، ولا يزالون ذوي اختصاص مشهور على مستوى المملكة.

م. نبيه البراهيم

إقرأ للطاقة

مصادر الطاقة في بحر قزوين



يعالج هذا الكتاب، الذي صدر عن مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، انعكاسات مصادر الطاقة في بحر قزوين على منطقة الخليج العربي.. وهو يقع في 297 صفحة من الحجم الوسط.

وتتوزع مادته على مجموعة مساهمات كتبها عشرة خبراء وباحثين في حقل الطاقة. استعرضوا فيها احتياطات الطاقة في بحر قزوين ونقاط الجذب ونطاق الاستثمارات الأجنبية والتعقيدات القانونية القائمة ووضع خطوط الأنابيب حاضراً ومستقبلاً والمخاطر التي تواجه إنتاج النفط وتصديره من المنطقة.

وإذ يشير المدير المشارك لشؤون بحر قزوين في مؤسسة كامبردج لبحوث الطاقة لورنت روسكاس في بحثه إلى أن الاحتياطات النفطية التي يمكن اعتبارها مؤكدة في منطقة بحر قزوين، وتحديداً في أذربيجان وكازاخستان وتركمنستان، تتراوح ما بين 25 و 30 بليون برميل، فإن الخبير الدولي روبرت أبيل يتحدث عن مخاطر جيولوجية وفنية وسياسية تواجه شركات النفط في البحث عن النفط الخام والغاز الطبيعي في هذه المنطقة، ما يقوده إلى القول "إن العالم لم يجد في نفط بحر قزوين بديلاً لنفط الشرق الأوسط". ويوافقه الرأي، المتخصص في الاقتصاد السياسي ويلفرد كول، حين يخلص في بحثه عن تنمية نفط بحر قزوين وانعكاساتها على منظمة أوبك إلى أن "كلفة إنتاجه تفوق تكاليف الإنتاج في الخليج العربي ما يقلل من الاهتمام الدولي به".

لكن على رغم أن سيطرة دول الخليج العربي المنتجة للنفط على السوق قد لا تتأثر على المديين القصير أو المتوسط، إلا أن أبحاث المجموعة في الكتاب تلفت إلى أن نفط بحر قزوين يشكل إضافة مهمة إلى إنتاج النفط من خارج منظمة أوبك لاحقاً.

قول في مقال

ثلاثة آلاف يوم مع ذاكرة القرن العشرين!

طيلة ثمانية أعوام، ويوماً بعد يوم، واظب الصحافي والناقد **إبراهيم العريس** على كتابة زاوية يومية في جريدة "الحياة" بعنوان "ذاكرة القرن العشرين". وفي هذه السطور يتحدث صاحب الزاوية، للمرة الأولى، عن تجربته وما آل إليه بحثه في أدغال هذا القرن، من جانب الأحداث والشخصيات والمفاهيم.

بدأت الحكاية بدردشة كان يمكن أن تكون عابرة، حدث ذلك في عتمة زقاق لندني ذات مساء خريفي وعقد التسعينيات في أوله. كانت نهاية القرن تلوّح لنا من بعيد، وكما في كل نهاية كان ثمة شيء يشبه الحزن وشيء يشبه الفضول. لكن السؤال الأساس بين ما يشبه هذا وما يشبه ذاك كان: ما الذي نعرفه حقاً عن هذا القرن الذي يؤذن بالنهاية؟ عن هذا القرن الذي عشنا في جزء منه ويبدو لنا، مقارنة بكل القرون التي سبقته، أغربها وأعنفها وأروعها، وجملة من أفعل تفضيل أخرى؟ للوهلة الأولى يكون الجواب بسيطاً: نعرف منه على قدر ما عشنا فيه وما شاهدنا أو سمعنا عنه.

"بديهي، عزيزي واطسون أليس كذلك؟" كما قد يقول شرلوك هولمز. وبديهي أن نرى، عبوراً، أننا نعرف عن قرننا العشرين أكثر مما نعرف عن أي قرن آخر، فهو القرن الذي عايشنا نصفه على الأقل، ميدانيا، أما القرون الأخرى فجاءتنا حبراً على ورق الكتب أو مواد تملأ المتاحف أو حكايات متناقلة.. وكان في ذهننا دائماً قول منسوب إلى غوستاف لوبون: "لو كان الحجر ينطق لكان التاريخ كذبة كبرى".

بالنسبة إلى القرن العشرين، لم نكن في حاجة إلى حجر ينطق. كنا في حاجة إلى شحذ الذاكرة لا أكثر. وهكذا، لوهلة أولى طُويت الدردشة.. وغابت الفكرة، غير أن الذاكرة الملحاح لم تنم ليلتها. أقل ما فعلته أنها استعادت السؤال الأساسي.. ولكن ما الذي نعرفه حقاً عن القرن العشرين؟

منذ صباح اليوم التالي، وفي فضول يتسم ببعض القلق وببعض التهكم أيضاً، راحت اليدان والعينان تعبثان بما كان في متناول اليد من صفحات وصور تروي نزراً يسيراً من حكاية القرن: كانت الغاية، أول الأمر كما يبدو، التيقن من أن في الإمكان وضع الحكاية كلها في سلة محفوظات التاريخ ونسيانها، في انتظار قرن تالٍ نعيشه أو نعيش بعضه من جديد.

كانت الصفحات والصور معهودة من قبل. ولكنها كانت تلوح متفرقة متباعدة، يبرر تباعدها بعضها البعض... أما هنا، أمام إلحاح الذاكرة المشاغبة... فبدا الأمر مختلفاً: بدأ التراكم يشير إلى نواحٍ لم تكن متوقعة. والأمر الذي ابتدأ لعبةً، تحول بسرعة ليعج هاجساً. والهاجس تحول بحثاً ليتحول البحث إلى زاوية يومية في الصحيفة. في البداية، أمام "زحمة" الحكايات والمعلومات وتشعبها كالمتاهة، كان الرهان ألا تدوم الزاوية إلا أشهراً... لكنها دامت ثماني سنوات، وبلغ مجموع قطعها أكثر من ثلاثة آلاف.

من الناحية التقنية للبحث، كان الأمر غريباً، ولكنه يدخل ضمن حدود الممكن: عبارة عن رواية قصة القرن العشرين، يوماً بيوم، من خلال أحداثه السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية، ولكن أيضاً من خلال ضروب الإبداع التي استشرت فيه، بين مسرح وأدب وموسيقى ورسم وسينما وما إلى ذلك.

ومن هنا كان كل شيء أمراً صالحاً ليرتسم في الزاوية.. كل حدث وكل ذكرى موت وكل موعد صدور كتاب أو عرض فلم، في طول القرن العشرين وعرضه. وكان المطلوب، معلومات عن كل حدث وعن كل شخص، يمكن استخدامها لوضع تحليل ثم تعليق واستخلاص نتائج ما.

غير أن هذا الجانب التقني سرعان ما وجد نفسه متجاوَزاً... وبفعل العنصر الذاتي وجد نفسه ينحو بالتدريج على حساب العنصر الموضوعي. فلم يعد تاريخ القرن العشرين ما يروى. صار ما يروى هو نظرة الكاتب الذي يروي إلى ذلك التاريخ. ومن هنا سرعان ما حلت كلمة "ذاكرة القرن العشرين" محل "تاريخ القرن العشرين" لأن مفهوم الذاكرة ألصق بالذات، من مفهوم التاريخ، وأيضاً لأنه إذا كان التاريخ يكذب فإن الذاكرة يصعب عليها أن تكذب.

والحال أن هذا البعد الأخير، الذي سرعان ما بدا حاسماً بالنسبة إلى صاحب الزاوية - المتذكِّر - أملته ملاحظات فرضت نفسها بسرعة: وماذا لو كان كل ما نعرفه عن تاريخ القرن العشرين كاذباً أو مبتسراً أو مغرضاً؟ كان هذا هو السؤال الذي نبع عن تلك الملاحظة.

والحقيقة أن الفرق، طوال تلك السنوات الثماني، في كل ما أنتجه وحققه وعاشه القرن العشرون، كان لا بد له أن يسفر عن ذلك السؤال. الفرق في الوثائق والصور والمقارنات والتقاطعات والتصريحات والأقوال والأفعال، كما في النتاجات الثقافية والفكرية وربطها بدهاليز بيئتها وزمنها وحياة أصحابها، أدى بصاحب الزاوية إلى اكتشاف ألوف الثغرات أنصاف الحقائق والأكاذيب... وخاصة فيما يخص عالمنا المحلي، هذا العالم الذي أقل ما يمكن أن يلاحظ في أحداثه أن الإيديولوجيا والأفكار المسبقة غمرته وشوهته وجعلته أبعد ما يكون من الحقيقة. طبعاً من الصعب هنا إيراد أمثلة مقنعة، ومن يريد أن يتيقن عليه مراجعة مئات المقالات والملاحظات التي تناوبت على "ذاكرة القرن العشرين" طيلة ثمانية أعوام.

المهم هنا أن هذا الأمر، وهذا "الاكتشاف" الذي رافقه، والذي بدأ كعمل مهني صحفي صرف، سرعان ما استعاد شكله الأولي كهاجس، وكهاجس شخصي: وجد الكاتب نفسه في دوامة. وجد نفسه يعيد النظر في أمور كثيرة، صنعت جزءاً أساساً من تاريخه، وكانت، غالباً، أشبه بالمسلمات بالنسبة إليه. حول أية تقنية، حول أية فكرة؟ حول أي حدث؟ لا تهم الإجابة هنا كثيراً.

لربما يكفي القول: حول كل ما شكَّل التاريخ الشخصي العام لكاتب الزاوية. وهكذا حدث للزاوية أن تحولت، وإن في ذهن صاحبها على الأقل، ولكن أيضاً في ذهن قراء أوفياء كثر تابعوها يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر وعاماً بعد عام..، تحولت إلى سيرة ذاتية.

ولعلها، بهذا تكون أغرب سيرة ذاتية في تاريخ الكتابة وأكثر السير الذاتية غروراً أيضاً، أليس كذلك؟ ولكن هل حقاً يهم هذا البعد الأخير.. هل يهم هذا الحكم الأخلاقي على الأمر؟

أبداً.. ذلك أن كاتب الزاوية، إذ نظر إلى ذاكرة القرن العشرين، كسيرة ذاتية له، وجد نفسه وفي سرعة شديدة، يخرج من ذاتيته ليصبح صورة لجيل بأكمله أو أكثر من جيل. جيل طحنته الأكاذيب والأحداث التي فرضت عليه والأفكار التي لُقِّمها.. جيل عاش القرن العشرين أو أجزاء منه وقد خيِّل إليه أنه يعرف الحقيقة، فإذا بالسؤال يقفز أمام عينيه فجأة: ولكن أين هي الحقيقة؟

وظهرت أسطورة الفيل والعميان الذين التقوه فلمسوه فإذا بكل واحد منهم يخمنه شيئاً مرتبطاً بذاكرته لا بحقيقته. فكان أن تحولت الثلاثة آلاف مقال التي تشكل متن "ذاكرة القرن العشرين" إلى ما يشبه لعبة الكلمات المتقاطعة... وصارت أدواته تدور في ذهن صاحبها ... وتسبب له الدوار اليومي.

وهذا الدوار لم يتوقف إلا حين توقف القرن العشرون، ليبدأ ما يليه. وأحس الكاتب أن "واجبه" تجاه مسيرته الذاتية، الغريبة تلك قد انتهى - فتوقفت الزاوية لتتلوها في المكان نفسه من الصحيفة نفسها زاوية أخرى، يومية بدورها، لكنها أقل إثارة للدوار وأكثر فائدة على الأقل.

أما، ذاكرة القرن العشرين، فصارت أكداساً من أوراق تحمل ملايين الكلمات، تروي حكاية الزمن الأكذب في تاريخنا. تروي ضرورة إدراكنا كذب هذا الزمن.. لأن آثار الكذب وتأثيراته لا يمكن أن تُمحى إلا منذ اللحظة التي نعي فيها أن ما عشناه وشاهدناه وعرفناه، لم يكن ما اعتقدناه أبداً.

سيرتنا الذاتية، الفردية أو الجماعية، أو لعلها الفردية والجماعية في الوقت نفسه، لم تكن أبدا كما خُيِّل لنا. ولكن هل تراها كانت، حقا، كما يمكننا أن نستنتج من خلال تحويلها إلى تلك الذاكرة- الهاجس؟



انتهى الصيف وعاد آلاف الشبان إلى بيوتهم ومدارسهم من المراكز الصيفية التي أمضوا فيها بعض أيام عطلتهم، وشاركوا في أنشطتها التربوية والتثقيفية والترفيهية. هذه المراكز، التي أصبحت تقليداً سنوياً في المملكة، توقف الزميل **حبيب محمود** أمامها، متلمساً واقعها واحتياجاتها، ورصد شيئاً من إشارات العمل على تطويرها.

ملاحظات حول نمطيتها وتكرار برامجها..

المراكز الصيفية..
صناعة الفائدة من مادة الفراغ

لم يكن أحد من آلاف الحضور يتوقع أن ينسلّ شاب من بينهم، ويتجه صوب الإدارة المسؤولة عن كل هذا الحشد ليسلّم لها ما بحوزته، ويوثّق أمامها قراره النهائي بشأن تعاطيه المخدرات.

هكذا، وبكل بساطة، وجد الشاب نفسه أمام قرار طالما كان صعباً عليه، لكنه - وبتأثير مما رأى وسمع - اتخذ القرار، وقصد بإرادته إدارة المخيم، وأنهى علاقته بالإدمان في لحظة حاسمة. ولم توفر إدارة المخيم جهدها في احتضان هذا التائب، بل وجهته إلى جناح إدارة مكافحة المخدرات لتتولى تعزيزه نفسياً وتُخضعه لبرنامج علاجي يساعده في استرداد عافيته.

لم يكن هذا الشاب هو الوحيد الذي أيقظته التوعية. لقد كان ثامن ثمانية تأثروا بفعاليات المخيم والتي من بينها فكرة توعوية بسيطة تتلخص في خيمة أطلق عليها اسم "البداية والنهاية"، بداية التعاطي ونهاية الإدمان. وقد دخل الثمانية هذه الخيمة مع من دخلوا، ولكنهم لم يخرجوا إلا وهم يبدأون في إصلاح حياتهم.

هذه القصص وغيرها شغلت بال الصحافة المحلية في أسابيع ماضية ضمن متابعتها لأنشطة الصيف المبرمجة. ولم يكن موضوع مكافحة المخدرات الحدث النمطي الأهم، بل كان عَرضاً تمخض عن أنشطة صيفية نموذجية تُنفّذ في ما يُعرف بـ "مخيم الشباب" الذي يقام سنوياً في ضاحية الكورنيش بمدينة الدمام. والمخيم نموذج تربوي للمراكز الصيفية. فقد أدى أعماله اليومية بمشاركة 500 عضو متطوع، أداروا آلية عمل لأربعين نشاطاً، وواجهوا قرابة 10 آلاف زائر في اليوم. وتضمن المخيم خليطاً من الأنشطة جديراً بالإعجاب، ليس أهمها إحياء الألعاب الشعبية المنسية، ولا الدورات الرياضية، ولا برامج التدريب على الحاسب الآلي، ولا حتى الجوائز المغرية التي قدمتها الشركات والمؤسسات التجارية، بل كان كل ذلك مضافاً إلى التفاعل الاجتماعي المتمثل في كثافة الزوار والمشاركين، وفي جدية البرامج، وفي انسجام المخيم وأعراف المجتمع، الأمر الذي جعل منه - بعد كل هذا التميز - جزءاً مهماً من النشاطات السياحية في المنطقة الشرقية.

وفي أنحاء متعددة كانت المراكز الصيفية المنتشرة في طول البلاد وعرضها تطرح الوقت على مساحة



اهتمام الشباب، وبخاصة قطاع الطلاب. وعبر البرامج المتعددة في المستوى والنوع انخرط عشرات الآلاف من الشباب في أنشطة تستهدف في المقام الأول صناعة الفائدة في فراغ الصيف المحرج تربوياً واجتماعياً. هذا الفراغ الذي تنعكس آثاره على السلوك اليومي في صورة ما يسمى بـ "انفلات عملية الضبط" لدى الناشئة، وتتفتح أوقاته على احتمالات متعددة المخاطر.

أكثر من 500 مركز

تعمل المراكز الصيفية تحت عدد من المظلات الرسمية، فمنها ما تشرف عليه وزارة التربية والتعليم، ووزارة الشئون الإسلامية، والمؤسسة العامة للتعليم الفني والتدريب المهني، ومنها ما يخضع لإشراف جمعيات ومؤسسات خيرية، ومنها ما يُنفَّذ تحت رعاية أندية رياضية، ومرافق سياحية. ووفق مصادر وزارة التربية والتعليم فإن هناك 250 مركزاً صيفياً أشرفت عليها الوزارة هذا الصيف، إضافة إلى عدد يقترب من هذا الرقم يتبع مؤسسات أخرى.

وتتخذ المراكز التابعة لتعليم البنين بعضاً من مفردات المعسكرات الكشفية، وتبرمج أنشطتها على أساس الجمع بين "الترفيه والتعليم"، وتظهر هذه القيمة التربوية في المسابقات الثقافية، والرياضية، والفعاليات الفلكلورية، والتدريب على المهن، فضلاً

عن الرحلات الترفيهية وزيارة المنشآت البارزة، والمواقع الأثرية. وتهتم المؤسسات الخيرية، من جانبها بشكل خاص، بأنشطة الثقافة الدينية. فعلى سبيل المثال رعت الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم 21 مركزاً صيفياً في المنطقة المعروفة بـ "حاضرة الدمام"، مركزة على تحفيظ النشء كتاب الله وتجويده، لمستويات متفاوتة من أعمارهم.

إلى ذلك تتنوّع أنشطة المراكز التي ترعاها المؤسسات الشبابية والسياحية، من دورات القرآن الكريم، إلى التصوير الضوئي والفن التشكيلي، والحاسب الآلي، ورياضات الدفاع عن النفس، وانتهاءً بالجوائز والهدايا.



هذا العام شهد حدثاً نوعياً على مستوى أنشطة المراكز الصيفية، حين قررت وزارة التربية والتعليم إشراك المرأة في الأنشطة الصيفية عبر مدارس البنات

انطلاقة نسائية غير تقليدية

هذا العام شهد حدثاً نوعياً على مستوى أنشطة المراكز الصيفية، حين قررت وزارة التربية والتعليم إشراك المرأة في الأنشطة الصيفية عبر مدارس البنات. وفي حين كان يُتوقع أن يؤثر انعدام الخبرة لدى إدارات تعليم البنات، في انطلاقة الأنشطة الصيفية النسائية، فإن الإطار العام لهذه الأنشطة يشير إلى انطلاقة قوية، ويبدو ذلك جلياً في تنوع الأنشطة التي تبدأ بالبرامج الدينية، وتمر بالشعر والقصة والمقالة والإلقاء، وتتضمن محاضرات ودورات تدريب تهتم حتى بالإخراج الصحفي وصياغة الخبر، فضلاً عن اللغة الإنجليزية، وفنون السلوك، وحماية البيئة، ناهيك عن الثقافات المتصلة بالمرأة والسلامة والصحة وغير ذلك.

إذن فإن موقع المراكز الصيفية أخذ يتكرس على مستويات متعددة. وهذا ما يجعل من إعادة النظر إلى واقع هذ المراكز ملحاً أكثر من أي وقت مضى. إذ على الرغم من ترسّخ الخبرات لدى الكثير من التربويين المشاركين في الفعاليات السنوية، فإن هناك – بالمقابل – ملاحظات تطرح نفسها أمام هذه التجربة التي تتكرر سنوياً.

مراكز نمطية ..!

"المراكز الصيفية نمطية".. هذه مقولة قد توجه بسهولة إلى الفعاليات التي تنفذها الإدارات التعليمية في مناطق البلاد. وقد تصل درجة النمطية إلى إعادة تنفيذ الفقرات نفسها التي نفذها مركز ما في العام الفائت، والعام الذي سبقه، وربما امتدّ التكرار إلى نسخ خطة النشاط عينها وإلصاقها في برنامج العام الحالي، وقد تُلصق، دون غيرها، في برنامج العام القادم.

أجيال متزاحمة

وبالإمكان فهم بعض الثغرات التنفيذية – إذا صح التوصيف – في أداء المعلمين لعملهم في المراكز. ففي العادة تخصص مدرسة ما لتكون مركزاً لمدينة أو محافظة. ثم يحتشد في مبناها مئات الطلاب من المراحل الدراسية الثلاث دفعة واحدة. وهذا الخلط يعني – ببساطة – وضع ثلاثة أجيال على الأقل (الابتدائي، المتوسط، الثانوي) في بيئة واحدة. وقد يمتدّ الخلط إلى دمج طلاب مرحلة وطلاب مرحلة أخرى في ما يسمى بـ "أسرة" واحدة. ومن البداهة التربوية أن تكون الاحتياجات مختلفة بين المرحلتين، فضلاً عن اختلاف الاستعدادات المهنية لدى المعلم المشرف على المجموعة.



من أبرز مواقع الزيارة أثناء عطلة الصيف في المنطقة الشرقية معرض أرامكو السعودية الذي ينظم منذ سنوات برنامجاً صيفياً يمتاز بالتنوع والتجديد. ويستقبل هذا البرنامج يومياً المئات من الزوار من جميع الأعمار، بحيث تتاح فرصة الاطلاع على تاريخ صناعة النفط، قديماً وحديثاً، وتتاح فرص أخرى للتعليم والترفيه

التدريب .. وسيلة تطوير

والمعلّم المؤهل لأداء مهني تعليمي ليس – بالضرورة – قادراً على أداء عملٍ خارج المنهج الدراسي بالكفاءة ذاتها، خاصة مع اختلاف شكل النشاط الصيفي عن الشكل التربوي التعليمي المؤصل المحدود في آلياته.

والمعنى: هو أن إدارة المركز الصيفي تستحق أن يقودها وينتجها فريق عملٍ قادر على التعاطي مع الأنشطة غير المدرسية، وبشكل تربوي لا يدخل ضمن آلية المهنية التعليمية. وهذا يشير – بدوره وعلى نحو واضح – إلى أن ثمة أهمية ملحّة إلى إعداد المعلّم المكلف – أو المتطوع – بالعمل في المركز الصيفي. وهذا الإعداد يتأتى بالتدريب الكافي لتغذية فريق العمل بالخبرات العلمية التربوية والثقافة اللازمة لإدارة الوقت واستثماره على النحو المخطط له.

الصور: أرشيف أرامكو السعودية

الفتيات يتدربن على الخطابة والكتابة

في المركز الثقافي الصيفي للبنات، الذي احتضنته المتوسطة الثانية عشرة، نشاط يومي حافل بالأنشطة. وحسب ما ذكرته نعيمة الغنام، مديرة المركز، فإن قرابة 200 طالبة من مختلف المراحل، يرتدن الموقع بمعدل أربع ساعات يومياً لمدة شهرين تقريباً.

من جانبها تقول صديقة فهد الحسينان، رئيسة شعبة نشاط الطالبات في المنطقة الشرقية: "مراكز البنات معنية بالنشاط الثقافي والاجتماعي والعلمي والمهني والديني، وتنمية ثقافتهن وصقل مواهبهن وتعريفهنّ بجديد المعلومات والخبرات. إضافة لهذا كله تساعد المراكز الطالبات ذوات المستوى المنخفض بدروس تقوية".

الطالبات، في المركز، اهتممن – حسب الأخصائية في جامعة الملك عبد العزيز فاطمة الملا، بالإقبال على النشاط الاجتماعي الذي يعتمد في قسمه الأول على سلسلة مهارات تربوية اجتماعية أسرية، بينما يعتمد في قسمه الثاني على النشاط الذاتي في الكتابة، وعمل البحوث والمطويات والنشرات التثقيفية.

أما فوزية المؤيد – مشرفة مكتبة ومشرفة قسم الأمن والسلامة – فتحدثت عن دور قسمها في خلق الوعي الأمني واتخاذ إجراءات السلامة المنزلية ضمن مجموعة من الأنشطة.

صالة نشاط

في ساحة المركز لفت انتباهنا سحر ألوان اللوحات التشكيلية التي تشكل جزءاً من النشاط. وفي صالة واسعة احتشدت الطالبات لممارسة التدريب على الإلقاء والجرأة والثقة في عرض الرأي وإدارة الحوار ومواجهة الآخرين.

منيرة البريدي (ثاني متوسط) قالت: "أعجبتني أجواء التعليم هنا، فهي متنوعة"، بينما قالت بتول عبدالكريم: "دخلت مجال اللغة الإنجليزية الذي أحبه".

الإعجاز العلمي هو اختيار صفاء سعيد وليلى بلجرشي (ثالث ثانوي). وتقرر عواطف البحر، وهي أم طالبة: "لمست تطوّراً واضحاً منذ التحقت ابنتي بالمركز وأصبحت تحفظ القرآن الكريم وتجوّده، وتتحدث ببراعة فائقة، وهذا دفعني لتشجيع زميلاتي وجاراتي على إلحاق بناتهن في المركز."

عالية فريد



"هاري بوتر" الكتاب والظاهرة

يعيد الصغار إلى القراءة ويقلب نظرة الكبار إلى الصغار

لم يعد "هاري بوتر" عنواناً لرواية موجهة إلى الأولاد، بل عنوان قضية زلزلت عالم النشر وهدمت الكثير من المفاهيم الشائعة في عالم الكبار قبل عالم الأولاد. فما من كاتِب واحد في التاريخ تجرأ على أن يحلم ببيع خمسة ملايين نسخة من كتابه في اليوم الأول لصدوره، ولكن هذا الحلم أصبح حقيقة على يد الروائية البريطانية ج.ك. راولنغ في كتابها الأخير الذي بيع منه في يوم واحد في الولايات المتحدة وحدها نحو خمسة ملايين نسخة.

الأستاذة في شؤون التربية والتعليم مهى قمر الدين ومراسلنا في لندن رياض ملك يقدمان هنا قراءتهما المشتركة لهذه القضية، بدءاً بأسباب النجاح الهائل الذي حظي به هذا العمل الأدبي، وصولاً إلى ما يكشف عنه هذا النجاح، والانقلابات التي أحدثها في نظرتنا إلى عالم الصغار، وتداعياته التي صار لا بد من أخذها بالحسبان عند التوجه إليهم بأي عمل أدبي، أو حتى لسلامة العلاقة فيما بيننا وبينهم.

عند صدور كتاب ج. ك راولنغ الأخير عن الساحر اليافع هاري بوتر، تم توقيت صدوره يوم السبت حتى لا يتغيب عشاق هذه الكاتبة من تلاميذ المدارس عن مدارسهم للحصول على نسخة منه.!

وبعيد صدور الكتاب شكا أحد أساتذة المدارس الثانوية في لندن قائلاً: "معظم التلاميذ يأتون إلى الصف من دون أن يقرأوا صفحات قليلة من المواد المقررة لهم في أية مادة. ولكن الواحد منهم يقرأ مئة صفحة من هاري بوتر في الليلة الواحدة".

هذا الكتاب هو الخامس في سلسلة حققت نجاحاً لا مثيل له في التاريخ، ووصل مبيع هذه الكتب جميعاً إلى 192 مليون نسخة حتى تاريخ إعداد هذا التقرير. ففي بريطانيا التي يبلغ عدد سكانها نحو خُمس عدد سكان الولايات المتحدة تعدت مبيعات الكتاب الأول ثلاثة ملايين نسخة، ولا يزال بعد مرور خمس سنوات على صدوره ضمن قائمة الكتب العشرة الأكثر مبيعاً. والكتاب الرابع "هاري بوتر وقدح النار" بيع منه أكثر من ثلث مليون نسخة في اليوم الأول لصدوره في يوليو 2000م. وهذا ما جعله أسرع الكتب مبيعاً في التاريخ حتى آنذاك طبعاً، لأن هذا الرقم القياسي تحطم مرة جديدة بالكتاب الخامس، الذي بيع منه خمسة عشر ضعفاً !!!

الأرقام تسبب الصداع، ومن حقنا أن نتساءل أمامها: هل نحن أمام ولادة عبقرية جديدة من نوع تشارلز ديكنز أو لورنس اجتاحت عالم الأدب من دون مقدمات؟ البعض ينفي ذلك ويقول إن سلسلة هاري بوتر لا تشكل تحفة أدبية بالمقاييس النقدية، كما أنها ليست على مستوى من العمق يدفع القارئ إلى بحر من الأفكار والتأمل. ولكن هناك إجماعاً على أن الكاتبة قد خططت لمادتها بذكاء فائق وأتقنت سبكها في البيئة واللغة الملائمتين لجذب القارئ الذي تتوجه إليه.

موضوع السلسلة

ولأن الكثيرين من القرّاء العرب لم يقرأوا حتى الآن هذه السلسلة وخاصة الكبار منهم، نتوقف لإلقاء نظرة على موضوعها الذي سحر الصغار في كل بلدان العالم. ولد بطل هذه السلسلة هاري بوتر لأبوين من السحرة قُتلا على يد ساحر شرير. لكن هذا الساحر فشل في أن يقتل البطل نفسه الذي كان لا يزال طفلاً رضيعاً، وارتد سحره عليه، ففقد قوته. وشاع هذا الخبر في مجتمع السحرة وأصبح هاري بوتر مشهوراً من دون أن يدري. ثم تستكمل الكاتبة تشكيل بيئة العمل بإرسال البطل الصغير إلى مدرسة السحر الكائنة في مكان ما من الريف البريطاني حيث تدور معظم أحداث القصة.

في الكتاب الخامس تتحدث المؤلفة راولنغ عن سنة هاري بوتر الخامسة في مدرسة هوغوارتس للسحر والشعوذة. وكما في الكتب الأربعة السابقة، يبدأ الكتاب بالصيف الطويل والحار، وبشعور هاري بالملل التام من السكن مع أقربائه المملين آل ديرسليغز الذين لا يعاملونه بطريقة جيدة. ومن ثم يذهب إلى المدرسة حيث يعلم الساحر الصغير أن الشرير فولد مورث قد عاد، وأن دامبلدور قد أنشأ تنظيماً مؤلفاً من مجموعة مهمة من السحرة لمواجهته سمّاها "فينكس" أي العنقاء، وينضم هاري إلى هذا التنظيم حيث يتلقى دروساً متقدمة في فنون السحر واكتساب القوى الخارقة.

والسؤال الذي يتكرر هنا هو ما الذي أعجب الأولاد في هذه القصة؟ ولماذا أعادت هذه السلسلة حب المطالعة عندهم، ونحن الذين كنا نظن أن الجيل الناشئ هو جيل الكومبيوتر والأغاني السريعة وأفلام الرسوم المتحركة، وأن قدرته على التركيز والمثابرة قصيرة جداً، فإذا به يمسك أو يتمسك بكتاب يقع في 766 صفحة تقريباً ..؟

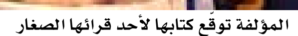
إن اختيار الكاتبة لمجتمع السحر حللها من قيود الأسباب والنتائج المنطقية التي ترهق كل الروائيين والتي يجب أن تبدو مقنعة للقارئ في أي عمل قصصي. الأمر الذي سمح لها أن تحلق بخيالها حتى الحدود القصوى، وأن تُكوِّن صوراً مسلية وعجيبة ومضحكة تستحوذ بكل سهولة على اهتمام القارىء ما بين سن العشر سنوات والخمس عشرة سنة. فعندما لا يتمكن هاري ورفاقه مثلاً من استقلال القطار للعودة إلى مدرسة السحر، فإنهم يطيرون بسيارة، من دون أن يبدو الأمر غير منطقي، مع أنه مثير للناس خارج مجتمع السحرة. والطبيبة الساحرة يمكنها أن تنبت لك يداً جديدة، أو ترمم عظامك المهمشة في ليلة واحدة بفضل مركباتها السحرية.

والسحرة قد يُخطئون أيضاً في تحضير تركيبة معينة فيتحول الشخص إلى هرة أو فأر. ولكن ذلك يمكن تداركه أيضاً في مستشفى السحرة.. وهناك آذان قابلة للتمدد، وهويات مستترة، ووطاويط تنقل البريد، وأشخاص لا يظهر منهم إلا رداؤهم الطويل من غير وجه ولا أطراف.. إلى ما هنالك من أمور غريبة عجيبة.




رويترز

رويترز

المؤلفة توقع كتابها لأحد قرائها الصغار


كوربيس


all movie photo
لقطة من «هاري بوتر» الفلم

غير أن الكاتبة لا تنفصل عن عالم الواقع انفصالاً تاماً، فمدرسة السحر تشبه شكلاً وموضوعاً أية جامعة بريطانية محترمة، بل ربما تعمدت الكاتبة هذا التشابه. فقلاع مدرسة السحر تذكر القارئ بجامعة كامبريدج، وكذلك تقسيمها إلى تخصصات مختلفة، لكل منها أنديتها وفرقها الرياضية ومبارياتها التي يعرفها كل من عاش الحياة الأكاديمية في إنجلترا. كما أن الكاتبة لا تتردد في نقل صورة حية لما يجري داخل تلك الجامعات من تنافس بين الأساتذة على المناصب والشهرة بالعمل حيناً وبالغش أحياناً، وما يتطلبه ذلك من حيل ومؤامرات تحاك في الظلام. هذه الصور، لا بد وأن يحتفظ بها الطفل القارئ في ذاكرته لمدة طويلة، ولا بد من أن تطفو على السطح عندما يصل إلى المرحلة الجامعية، ليكتشف أن هاري بوتر لم يكن بالكامل من نسج الخيال.

إضافة إلى ذلك يبقى الحوار والتفاعل البشري من حيث مشاعر الخوف والقلق على المستوى الإنساني المألوف، ولا يتخطاه إلى مشاعر خارقة. إذ أن هاري بوتر ورفاقه أولاد عاديون يخافون ويحبون ويمرحون ويفكرون على مستوى الطفل العادي، حتى أن هاري يقلق كأي طفل عادي بشأن إتمام واجباته المدرسية: "هزّ هاري رأسه ملاحظاً أن الألم في صدغه الأيمن بدأ يسوء.. لقد فكر بالموضوع الطويل عن حرب العمالقة الذي كان عليه أن يكتبه.. كان يعلم علم اليقين أنه عندما يستيقظ في الصباح سوف يندم على عدم إتمامه فروضه تلك الليلة، وهكذا رتب كتبه في شنطته المدرسية".

ولا ريب في أن الكاتبة تنبهت إلى أن فترة الخمس سنوات التي مرت على نشر الكتاب الأول من هذه السلسلة تعني أن قارئها كبر أيضاً خمس سنوات وصار تفكيره أكثر نضجاً. ولذا عمدت إلى إدخال أفكار على لسان شخصياتها من النوع الذي لا يفهمه طفل

مضمون الكتاب على الرغم من مستواه الأدبي الجيد لا يبرر وحده رواجاً بهذا الحجم على الصعيد التجاري، إلا إذا كان وراء ذلك ما نجهله

في العاشرة، ولكن معناه لا يفوت فتى في الخامسة عشرة من عمره. كأن تقول مثلاً على لسان مدير مدرسة السحر موجهاً كلامه إلى هاري: "أتدري؟ الحجر (حجر الفلاسفة) ليس شيئاً رائعاً في الواقع. إنه يعطيك ما تطلبه من المال وطول العمر، الشيئان اللذان يسعى إليهما البشر أكثر من أي شيء آخر. المشكلة أن البشر لديهم مهارة فائقة في أن يختاروا بالضبط الأشياء الأسوأ بالنسبة إليهم".

ومن الممكن أيضاً أن نقارن بين شخصية هاري بوتر وشخصية "سوبرمان". الاثنان يتيمان، ويتحولان إلى بطلين خارقي القوة. ولكن هاري ولد يشبه جمهور الأولاد الذين يقرأونه، وليس شخصية محض أسطورية، كما أن يتمه أكثر إنسانية من يتم سوبرمان، وهو بذلك أقرب إلى شخصيات مثل أوليفر تويست وديفيد كوبرفيلد للكاتب الإنجليزي الشهير شارلز ديكنز، مما زاد من حماس الأولاد له والتعاطف معه. وفي هذا الكتاب أيضاً نجد الصراع التقليدي بين الخير والشر، حيث يمثل هاري البطل المخلص الوفي المبدع والشجاع الذي يحارب الشرير ويقوم بالمستحيل بالتعاون مع رفاقه من أجل القضاء عليه.

ولا ننسى أخيراً الأسلوب الشيق الذي تتمتع به المؤلفة راولينغ، التي أغنت كل فصل من فصول الكتاب الثمانية والثلاثين بالإثارة، وفي بعض الأحيان بالرعب، من دون أن تتخلى عن روح النكتة والدعابة التي تهيمن على كثير من المواقف، فعندما يمازح هاري رفيقته الصغيرة هرميون يصف قبعات الأقزام التي صنعتها بأنها لا تشبه القبعات أبداً، وإنما تشبه الأكياس المحشوة بالصوف، وهكذا تغضب منه هرميون وتمتنع عن الحديث معه طوال ذلك الصباح. وعندما تصف الكاتبة هرميون هذه تقول بأنها "وقفت بشعرها المنفلش وكأن مساً كهربائياً قد أصابها مما أثار ضحك الجميع حولها".. وضحك القارئ الصغير أيضاً.

سر النجاح و مغزاه

مرة أخرى، وفي اتجاه تحليلي آخر، يعود السؤال ليفرض نفسه مجدداً حول سر هذا النجاح في جانبه التجاري، إذ أن مضمون الكتاب على الرغم من مستواه الأدبي الجيد لا يبرر وحده رواجاً بهذا الحجم على الصعيد التجاري، إلا إذا كان وراء ذلك ما نجهله أو كنا نجهله.

إن النجاح التجاري كما يعرف أي رجل أعمال يعتمد على عرض الإنتاج على مستهلك معين أملاً في أن يقتنع به لدرجة أن يشتريه. وكما يدرك رجال الأعمال، أيضاً، فإن النجاح التجاري ليس شيئاً مضموناً، واحتمالات الفشل واردة باستمرار. كما أن النتائج يمكن أن تتجاوز في بعض الأحيان ما كان يتوقعه رجل الأعمال المغامر سواء لجهة النجاح أو الفشل.

اللافت للنظر في حالة "هاري بوتر" أن الكتاب لم ينجح أول ما نجح من جراء حملة دعائية كبيرة فرضتها وسائل الإعلام، ولكنه انتشر بين الأولاد بواسطة الكلام من فم إلى آخر. وعندما نزل الكتاب الأول من السلسلة إلى السوق الأمريكية في سبتمبر 1998م، لم يطبع منه أكثر من 35 ألف نسخة، وخصصت له ميزانية تسويق بقيمة مائة ألف دولار. هذه الأرقام لا تعني شيئاً مهماً في سوق بحجم السوق الأمريكية، أو قل إنها لا تعني شيئاً على الإطلاق. فمن الواضح أن الناشر قد قدر آنذاك لهذا الكتاب فرصة نجاح محدودة على أساس أنه كتاب مسل وممتع لأطفال في أعمار معينة، قد يشتريه بعضهم ويصبر على قراءته.

والحقيقة أن الصحافة لم تعر الكتاب اهتماماً كبيراً آنذاك، وتناولته بالنقد بعد مرور ثلاثة أشهر على نشره وتصدره قائمة المبيعات. وقد فعلت ذلك مرغمة بعد أن فاجأها الإقبال الهائل من الأطفال على شرائه وقراءته.. ومما لا شك فيه أن هذا النجاح شكل مفاجأة سارة جداً للكاتبة كما للناشر. وعلى الرغم من أن ميزانية التسويق بقيت منخفضة، فإن حجم المبيعات استمر بالصعود وكأن الكتاب سوّق نفسه بنفسه.

إذن، لا بد من أن الناشر والكاتبة قد نجحا في تقديم عمل لشريحة من القراء على استعداد لشرائه بشكل واسع، وهذا هو السبب المباشر لنجاحه التجاري، أما مغازي هذا النجاح وتداعياته وما تكشف عنه فأوسع من ذلك بكثير وأعمق.

لقد تأكدت من عملية تسويق "هاري بوتر" مجموعة من الافتراضات المغلوطة التي كانت تتحكم بعلاقة السوق - وخاصة سوق النشر - بالأطفال وعالمهم الخاص. فالانطباع الذي كان سائداً آنذاك يقول إن الأطفال قصيري النفس لا صبر لهم على القراءة، خاصة إذا كانت مادة الكتاب طويلة، ويفضلون الالتصاق بشاشات التلفزيون وأجهزة



الكومبيوتر من دون بذل أي جهد يذكر. الكتاب الأول كان حجمه 223 صفحة، والخامس 766 صفحة، والبقية بين هذا وذاك.. وما زال الأطفال يغرفونه بالتركيز والنهم نفسيهما.

ونشير استطراداً إلى أن مسألة حجم الكتاب، أي كتاب، كانت وما زالت تؤرق بال الناشرين والمؤلفين للكبار، حتى أن الرأي الشائع خاصة في البلدان العربية، كان يقول إن كل كتاب يزيد عدد صفحاته على أربعمائة أو خمسمائة صفحة يجب أن يُقسَّم إلى جزءين، لأن القارئ يمل الكتاب الكبير..

القراء الصغار، وبأكثر الأشكال عفوية وصدقاً فندوا هذا الاعتقاد وأكدوا أن الكتاب الجيد يُقرأ بغض النظر عن عدد صفحاته.

الافتراض المغلوط الثاني كان يقول إن المجهود الوحيد الذي يبذله الأطفال هو في سرقة الموسيقى عبر الإنترنت أو الاطلاع على الأعمال الثقافية الموجهة إليهم من خلال القرصنة التي يطورون أساليبها من خلال تبادل المعلومات فيما بينهم، فالسوق يلاحق الأطفال ليسترضيهم نظراً إلى قوتهم الشرائية، ولكنه في الوقت نفسه كان يأنفهم لبراعتهم في السرقات الإلكترونية وهضم حقوق المنتجين.

في حالة "هاري بوتر" لم يعمد الأطفال إلى سرقة الكتاب عبر الإنترنت، بل اشتروا ملايين النسخ، وحوّلوا بقروشهم القليلة المؤلفة راولنغ إلى ثاني أغنى شخص في إنجلترا بعد الملكة. ربما أعار بعضهم الكتاب لأصدقائه، ولكن جميع الكتب دُفع ثمنها، وعلى الأغلب من جيب الطفل نفسه. الأمر الذي يعني أنه عندما يقتنع الطفل بما يعرض عليه وبعدالة سعره فإنه لا يسرقه بل يدفع ثمنه.

الافتراض الثالث كان في صميم أسس تسويق المنتجات الموجهة إلى الأطفال ويقول إن هؤلاء عجينة رخوة قابلة للتشكيل بفعل الدعاية المركزة التي تُصرف عليها الملايين، إذ يكفي أن تغسل دماغ الطفل بالدعاية المثيرة لتدفعه إلى شراء شيء ما لكي يستعيد الإنتاج الكلفة وفوقها الأرباح وفوقهما ثمن الدعاية نفسها.

إن تسويق "هاري بوتر" لم يأتِ أبداً عن طريق الدعاية الضخمة وغسل الأدمغة، بل تم الترويج له من القاعدة إذا صحّ هذا التعبير، فالمؤكد أن الأولاد هم الذين نصح بعضهم بعضهم الآخر بقراءة الكتاب، وهذا ما وفر كثيراً من الأموال على الناشر وزاد بالطبع من أرباحه وعائدات المؤلفة. إذن فعملية غسل الأدمغة ليست الطريقة الوحيدة أو السليمة لإقناع الطفل بجودة إنتاج معين.

إلى ذلك، لا يتردد البعض في اعتبار نجاح "هاري بوتر" تأكيداً صارخاً على أهمية الكتاب المطبوع وديمومته، واختلاف وظيفته عن وظيفة الإنترنت التي يرى البعض أنها تسلك الطريق نفسه الذي سلكه التلفزيون سابقاً.. استنفاد طاقاتها والملل منها.

وتبقى الخلاصة العامة في أن الكتّاب والناشرين الذين يتوجهون إلى الأطفال والفتيان يجدون أنفسهم اليوم أمام معطيات ما كانوا ليفكروا فيها دقيقة واحدة قبل أشهر معدودة، إذ صار لا بد لهم من إعادة النظر في المفاهيم التي كانت شائعة عن الأطفال و"بساطتهم" وقدرتهم على التمييز واتخاذ القرار.

صورة شخصية

أميرة المصطفى..

جيوفيزيائية سعودية حققت حلمها

سيرتها مثال لما يمكن إنجازه عندما يتحالف وضوح الهدف مع الإصرار الذي لا يلين على الوصول إليه مهما كانت الصعاب. عرفت كيف تستفيد من الفرص، وكيف تذلل العوائق، وها هي خبيرة جيوفيزيائية تقطف ثمار نجاحها. الزميل **خالد الطويلي** يعرض لنا بعض المحطات البارزة من مسيرتها.

عندما كانت أميرة المصطفى صبية تلعب مع قريناتها في إحدى "دواعيس" القلعة بقلب القطيف، كانت لها أحلام مختلفة عنهن للأيام المقبلة: بعضهن استغرب تلك الأحلام، وأخريات اعتبرنها غير واقعية، ولكن أميرة كانت مصرة على تحقيقها.

توازنها المعيشي يبدأ بهواياتها، فهي تهوى القراءة والطبخ وتقضي جلّ وقت فراغها بين الكتب ومواعين الطهي. ولدت أميرة في عائلة مهتمة بالعلم بدرجة كبيرة، فكانت بين أخوين وخمس أخوات جميعهم من الجامعيين. ثلاث من أخواتها يعملن في حقل التدريس وأخرى طبيبة أسنان والأخيرة أخصائية أشعة. أما الأخوان فأحدهما رجل أعمال والآخر مهندس. تقول أميرة إن الدراسة والتعليم كانا أهم أمرين في حياتها. كانت تحلم بأن تتابع تعليمها لتصل إلى مجال بدا بعيداً رغم قربه الشديد منها ألا وهو البترول.

بعد الانتهاء من مراحل الدراسة ما قبل الجامعية في القلعة، توفرت لأميرة فرصة تكاد تكون خيالية لتحقيق حلمها، حين افتتحت «أرامكو» برنامجاً حديثاً للابتعاث للدراسة الجامعية، فتقدمت أميرة، المتفوقة في المواد العلمية، خاصة الحساب والفيزياء، إلى البرنامج فتم قبولها لدراسة الهندسة، وباتت قريبة جداً من تحقيق حلمها. ولكن قبل أن يأتيها الدور، تم تعديل البرنامج، وعرض عليها استبدال تخصصها من هندسة البترول إلى الطب.

> رفضت دراسة الطب لحساب عالم النفط، ووجدت طريقها إلى هذا العالم من باب الفيزياء

> عشرون عاماً من العمل، والنتيجة تحقيق الحلم وتكوين أسرة مُحبة

تقول أميرة إنها لم تكن آنذاك مستعدة للتخلي عن حلمها، وقد ساعدتها إحدى زميلاتها للالتحاق بجامعة الملك عبد العزيز بجدة لدراسة الفيزياء، لأنها تعلم أن الفيزياء مفتاح لدخول عالم البترول.

درست أميرة الفيزياء في جامعة الملك عبدالعزيز إلى جانب ست زميلات، أربع منهن غير سعوديات فتفوقت وحصلت على شهادات تشير إلى هذا التفوق. وبعد السنة الثانية تزوجت وتابعت تعليمها بإصرار، ولم تنته السنة الدراسية الأخيرة إلا وأميرة حامل بابنتها الأولى. وعندما حان وقت قطف الثمر بداية عام 1985م، قطفت أميرة ثمرتين: الأولى شهادتها الجامعية في الفيزياء بتفوق، والأخرى ابنتها التي أنجبتها وسمتها هبة.

عندما عادت أميرة إلى المنطقة الشرقية بعد التخرج تحولت في أول سنة لها في أرامكو السعودية إلى دائرة التنقيب عن البترول لأن: "فيها فرصة أكبر للاستفادة من تخصص الفيزياء". تعمل أميرة المصطفى اليوم في أرامكو السعودية، أخصائية جيوفيزيائية بدائرة الاستكشاف والعمليات، وهي تعمل على تحليل وتجهيز المعلومات والخرائط التي تنتج عن المسوح السيزموغرافية للطبقات القريبة من سطح الأرض في مواقع الاستكشافات البترولية. هذه المعلومات يعاد صياغتها وتدقيقها للخروج بأفضل التصورات التي ترسل بعد ذلك إلى مواقع الحفر ليتم الاستعانة بها لتحديد أفضل أماكن الحفر بشكل دقيق.

لم تتوقف أميرة عن تطوير نفسها تلقائياً وعبر برامج التدريب في الشركة التي خرّجت خبراء على المستوى الدولي، منهم من تدرّس أوراقه العلمية في الجامعات الأوروبية والأمريكية.

والآن وقد عملت ولا تزال في مجال التنقيب عن البترول قرابة العشرين سنة، تستعيد تلك الأيام بكثير من الرضا وقد تحقق حلمها وكونت أسرة محبة وصالحة. فهي لا تنسى أن مساعدة زوجها وتشجيعه كان له دور حيوي في نجاحها، إضافة إلى تفوقها وإصرارها. ولكن أميرة كذلك أنجبت وربَّت وعلَّمت. ابنتها هبة تدرس الآن الطب في جامعة الملك فيصل، وقد حصلت على جائزة الأمير محمد بن فهد بن عبدالعزيز للتفوق العلمي مرتين في الشهادة المتوسطة والثانوية لأنها حصلت على نسبة النجاح الكاملة 100%. أما ابنها محمد، فلا يزال في المرحلة المتوسطة وتصفه دراسياً بأنه جيد "ولكنه ولد!".

لماذا بدأ الشمال..

كان يكفي أن ترتفع حرارة الطقس إلى ما فوق الثلاثين درجة مئوية في بريطانيا، ليطغى موضوع المناخ وتغيراته على متابعة ملف «أسلحة الدمار الشامل العراقية» وطريقة الحكومة في التعامل معها.

وخلال الخريف الماضي، وفي إسبانيا والبرتغال بالتحديد، أشاح الناس بوجوههم عن شاشات التلفزيون التي كانت تنقل إليهم أخبار أزمة العراق ليتطلعوا بقلق إلى غرق ناقلة النفط «لوبرستيج».

وفي فرنسا، فإن أشهر سجين سياسي شغل الرأي العام خلال هذا الصيف كان جوزيه بوفيه، رئيس الفدرالية الفلاحية والمشاغب الأول، الذي اشتهر بغاراته على مطاعم الهامبرغر الأميركية والمختبرات التي تقوم بتنفيذ تجارب لزراعة نباتات معدلة وراثياً.

إن المشكلات السياسية، على أهميتها، لم تعد الشغل الشاغل للرأي العام الأوروبي، فمع تراجع الأيديولوجيات المبشرة بغد مشرقٍ يصبح فيه التاريخ أفضل مما كان، بدأ الأوروبيون يتبنون أشكالاً مختلفة من الأنساق الفكرية والأنظمة السلوكية يقودها الخوف من نهاية كل تاريخ، وعنوانها العريض: «الحفاظ على البيئة حفاظاً على الحياة».

الماء الصالح للشرب، ثقب الأوزون، الموارد الطبيعية، النباتات المعدلة وراثياً، المخلفات الصناعية.. غيض من فيض التساؤلات والمواضيع التي يطرحها يومياً الملايين من الأوروبيين. يقرأون كل ما يكتب عنها، يطرحونها في أحاديثهم اليومية في المنازل والمقاهي، يحاولون جمع المعلومات وتشكيل رأي عام حيالها ومن ثم التعرف ضمن نتائج ومعطيات هذا الرأي العام.

ولعل تسارع وتيرة العولمة وما أدى إليه من تعميق للشعور بالانتماء إلى كوكب واحد أو مركب واحد؛ هو ما دفع المجتمعات المتقدمة إلى دق ناقوس الخطر والضغط على حكوماتها من أجل اتخاذ الإجراءات العاجلة لدرء الأخطار التي تحدق بالبيئة وبالناس من مائها. من هنا يمكن فهم المتابعة الشعبية غير الاعتيادية والتي لم تفتر بمرور الوقت، لأعمال مؤتمري ريو (البرازيل) وكيوتو (اليابان) حول التنمية المستديمة والمناخ والبيئة. ولا يتردد الكثير من المراقبين في أوروبا في القول أن العزلة الكبيرة التي وجدت الولايات المتحدة نفسها فيها لدى الرأي العام الأوروبي قبل الحرب على العراق وخلالها وبعدها، تعود في جزء كبير من أسبابها، إلى سبب بيئي يكمن في أن إدارة الرئيس جورج بوش تراجعت عن الالتزامات التي كانت إدارة كلينتون قد وافقت عليها في كيوتو

البيئة في الأنساق الفكرية والأنظمة السلوكية

الاهتمام بالبيئة كرة ثلج تتدحرج منذ ربع قرن. وعلى الرغم من أن كوكبنا أشبه بالمركب الواحد الذي إذا غرق سيغوص بكل ما يحمل من ركاب، سواء أكانوا من الدرجة الأولى أم الثانية، فإن كرة الثلج هذه تتضخم بنسب متفاوتة ما بين مكان وآخر في العالم.

مراسلنا في باريس ماجد نعمة ينقل لنا في هذا الموضوع صورة عن الاهتمام بالبيئة في أوروبا وتجذر هذا الاهتمام في نسيجي الحياة اليومية والفكرية على حد سواء.

ذهنيات جديدة بألوان بيئية



حول ضرورة الحد من تلويث الهواء بالغازات الصناعية.

ثقافة جديدة

هذا الخوف من المصير الأسود الذي ينتظر كوكبنا الأزرق إذا لم تتخذ الإجراءات (الإنقاذية) العاجلة يظهر ليس فقط من خلال مئات الكتب والتقارير التي تصدر سنوياً، بل أيضاً من خلال التغيير النوعي اليومي لملايين الأوروبيين إزاء البيئة وكيفية الحفاظ عليها، ومن خلال بروز تيار سياسي متعاظم تحت شعار «الدفاع عن البيئة والدعوة إلى التنمية المستديمة»، أي إلى تنمية أخرى أكثر إنسانية وعدالة وأقل تلويثاً وهدراً. والتحول في الذهنيات والسلوكيات الأوروبية ليس، مجرد موجة عابرة بل هو مؤشر لتغيير نوعي في علاقة المواطن بمحيطه الطبيعي أولاً والثقافي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي ثانياً. إننا بصدد ولادة ثقافة جديدة، لا بل أيديولوجية عالمية عابرة لكل التيارات والمدارس السياسية والفكرية والاقتصادية، سواء أكانت محافظة أم مجددة، يمينية أو يسارية. والدليل أن الدفاع عن البيئة لم يعد حكراً على الخضر وحدهم بل أصبحت جميع الحكومات والأحزاب تتبارى في وضع الدفاع عن البيئة والتنمية المستديمة

والعولمة ذات الوجه الإنساني في صدر برامجها السياسية.

ولكن الأهم من كل هذه الهرولة السياسية لقطف ثمار الوعي البيئوي الجارف واستغلاله هو الممارسة اليومية التي أصبحت في الواقع المعيار الأساس للحكم على مدى صدقية هذه الحكومة أو تلك ومدى جديتها في تطبيق وعودها الانتخابية في هذا المجال.

والمتتبع اليوم لملف البيئة في أوروبا لا بد من أن يصاب بالذهول من مركزيته في النقاش السياسي وفي الممارسة اليومية. فهو يبدأ بأبسط التفاصيل اليومية وينتهي بأعقد المفاهيم الفلسفية والاقتصادية والاجتماعية. ويكفي أن نلقي نظرة سريعة على سلم الأولويات اليومية التي تعبر عنها وسائل الإعلام في الدول الأوروبية مجتمعة لندرك كم أن الاهتمامات والهموم المتعلقة بالبيئة تتصدرها في كل الظروف.

هناك إعادة نظر في كثير من العادات الاستهلاكية التي فرضها منطق السوق كمسلمات وكحاجات أساسية في حين أن التجربة أثبتت أنها من الكماليات التي يمكن الاستغناء عنها

تراجع النزعة الاستهلاكية

إضافة إلى ذلك، بدأت النزعة الاستهلاكية في معظم الدول الأوروبية تتراجع مقابل تقدم الوعي بضرورة تحسين نوعية السلع المستهلكة والحفاظ على البيئة التي نعيش فيها ونتنفس ونشرب. والأمثلة على هذا الاتجاه واضحة منها: تحويل أحياء كاملة في المدن إلى مناطق محظورة على السيارات، إعادة الاعتبار للدراجات الهوائية، منع التدخين في العديد من الأماكن العامة، تطوير المواصلات العامة، منع السيارات الخاصة من السير عندما تبلغ مستويات التلوث حداً معيناً، تشجيع المخازن الكبرى على استعمال مواد تغليف وتعليب قابلة لإعادة الاستعمال أو لا تضر بالبيئة والتربة مثل أكياس البلاستيك، إلزام المستهلكين بفرز النفايات ورميها في أكياس معدة سلفاً لكل صنف منها. فالبطاريات وعلب الحبر والمواد المعدنية في كيس، والأوراق في كيس آخر والمواد الزجاجية في كيس ثالث.. وحتى أكياس النفايات نفسها أصبحت هي الأخرى تصنع من مواد صديقة للطبيعة والبيئة والصحة العامة.

وأيضاً هناك إعادة نظر في كثير من العادات الاستهلاكية التي فرضها منطق السوق كمسلمات وكحاجات أساسية في حين أن التجربة أثبتت أنها من الكماليات التي يمكن الاستغناء عنها من دون أن يتأثر مستوى المعيشة بذلك سلباً. إذ ما معنى إنتاج سيارات تفوق سرعتها (وبالتالي استهلاكها) 300 كلم في الساعة في حين أن قانون السير في معظم الدول بات يحدد السرعة على الطرق بأقل من 120 كلم كحد أقصى؟ أو ما معنى تسويق أجهزة استماع موسيقية تتجاوز طاقتها الـ 120 واط رغم أن معظم البيوت والشقق لا تسمح بتجاوز نسبة معينة من القوة الصوتية من دون أن يقع ذلك تحت طائلة القانون بتهمة إحداث ضجيج زائد وإزعاج الجوار والمساهمة في إفراز ما أصبح يسمى حالياً بالتلوث الصوتي؟

شمالهم يهتم بجنوبنا

قد يقول قائل إن هذا لا يعبر إلا عن هموم الأغنياء والمتخمين، لكن الواقع يشير إلى أن الفقراء سيكونون أول المتضررين لو تركوا أنفسهم يُستدرجون إلى هذا الفخ، معتبرين أن الدفاع عن البيئة هو مجرد ترف فكري لا ضرورة حياتية له. صحيح أن الدول الغنية تستطيع أن تواجه بفعالية الكوارث الطبيعية والصناعية الكبرى بأقل قدر من الضحايا نظراً لجاهزيتها لمجابهة مثل هذه الحالات الطارئة، في حين أن الدول الفقيرة تفتقد لمثل هذه الجاهزية وهذا ما يفسر التكلفة المادية الهائلة وعدد الضحايا البشرية الكبير عندما تتعرض لكوارث من هذا النوع. ضحايا يعدون على أصابع اليد في فيضانات الولايات المتحدة أو فرنسا مقابل المئات أو الآلاف من الضحايا في بنغلادش مثلاً..

وقد يقول قائل إن الغرب الغني يستطيع أن يتحمل كلفة الاهتمام بالبيئة لأن الأساسيات المعيشية باتت مؤمنة لمجتمعاته ولشعوبه، إضافة إلى أن أنانيته التي تمنعه من الاهتمام بمشكلات الآخرين إلا بقدر ما تؤثر هذه المشكلات عليه. والواقع أن حرص الغربيين على حماية بيئة الجنوب نابع بالضبط من أنانيته. وهناك نادرة يتعلمها الكثيرون من أهل الجنوب حين يكتشفون أسلوب الحياة الغربية. فعندما يصرخ أحد مستنجداً بالجيران داعياً لمساعدته على صد مجرم أو سارق فنادراً ما يلقى نداؤه تجاوباً من أحد وأقصى ما يمكن أن يأمله هو أن يبادر أحد الجيران بالاتصال بالشرطة. ولكن الحال تتغير جذرياً عندما يصرخ طالباً النجدة لأن حريقاً شبّ في شقته إذ سيفاجأ بأن الجيران القريبين والبعيدين سيهبون لإطفاء النار خوفاً من امتدادها إلى بيوتهم. والدول الغربية التي تهرول اليوم لنجدة الجنوب ومساعدته في حماية البيئة إنما تتصرف أولاً وأخيراً من منطلق أناني بحت لأن النار تقترب منها وتهددها ولأن العولمة لم تعولم الأسواق فقط بل المشكلات والآفات والأمراض والمياه والمناخ.. وفي رأي العالم الكندي الشهير هوبيرت ريفز فإن الأرض ليست على ما يرام، فالحياة على سطحها وفي باطنها وسمائها باتت مهددة. الصحراء تزحف باستمرار ولا من يوقفها. المياه مهددة بالندرة. التنوع النباتي والحيواني قد ينقرض. الهواء يتلوث والمناخ يسوء والمواد الأولية تشح وتنضب والفقر والأمراض، قديمها مثل جديدها، تتفشى... ولكن هذا لا يعني أن المعركة من أجل إنقاذ البيئة خاسرة سلفاً. فالإنسان يمتلك من الإرادة ومن غريزة البقاء ما سيمكنه من الانتصار في هذه الحرب الجديدة من أجل البيئة وبقاء الجنس البشري وهي الحرب الوحيدة التي تستحق فعلاً أن تخاض.

الدول الغربية التي تهرول اليوم لنجدة الجنوب ومساعدته في حماية البيئة، تتصرف أولاً وأخيراً من منطلق أن النار تقترب منها وتهددها، لأن العولمة لم تعولم الأسواق فقط بل المشكلات والآفات أيضاً

اقرأ للبيئة



الربيع الصامت

أعادت شركة بوسطن هوغتون Boston Houghton Company في العام 2002م إصدار كتاب "الربيع الصامت" Silent Spring لمؤلفته عالمة الأحياء الأميركية، راشيل كارسون لمناسبة ذكرى وفاتها الأربعين.

وكانت كارسون حذرت في هذا الكتاب الذي صدر عام 1962م شعبها وحكومة بلادها من الدمار الذي ستتعرض له الحياة البرية بسبب الاستخدام الجائر للمبيدات، فاعتبرت أم الحركات الداعية إلى حماية البيئة.

وقد وضعت كارسون كتابها بناء على وصية صديق لها فقد طيوره إثر حملة حكومية لإبادة البعوض عن طريق رش مادة "دي دي تي" (DDT). وعمدت إلى حشد أدلة لا يمكن دحضها لإثبات أن الإنسان يقوم بتسميم الأرض والماء بالمواد الكيميائية السامة، وفشلت كل محاولات الصناعيين لنقدها والسخرية من آرائها. فتم سنّ القوانين التي تحمي الهواء والماء من التلوث وكتب أحد النقاد عن كارسون قائلاً: "بضع آلاف من كلماتها جعلت العالم يتجه اتجاهاً جديداً".

ولدت كارسون في أيار (مايو) 1907م في بنسلفانيا وتخرّجت من جامعتها في اختصاص عالم البحار وتابعت دراستها لنيل الماجستير في علم الحيوان من جامعة جون هوبكنز عام 1932م. ومن مؤلفاتها "Under the sea-wind" الذي صدر عام 1941م، وكتاب "The Sea around us" الذي صدر عام 1951م وفي العام 1965م أي بعد مرور عام على وفاتها نشر لها كتاب "The Science of Wonder" وهو عبارة عن مقال بعنوان "ساعد طفلك على التساؤل".

كارسون التي توفيت إثر صراع مع مرض سرطان الثدي جاهدت من خلال كتابها "الربيع الصامت" من أجل إيصال صرخة إلى العالم لوقف استخدام المواد الكيميائية الخطرة التي تصيب مصادر طعام الإنسان وحذرت من أن أضرارها تفوق تلك الناتجة عن الإشعاعات.

قد يستغرب البعض أن هناك تلوثاً ناتجاً عن الضوء. فبالنسبة إلى الكثيرين منّا، كلما ازداد الضوء كلما كانت حياتنا أفضل، خاصة في الليل والأماكن المظلمة. الزميل **أمين نجيب** يحدثنا عن هذا التلوث الذي لم ينتبه إليه إلا قلة، والذي من شأنه أن يحدث خللاً في الطبيعة.

التلوّث الضوئي

كيف نطفىء نجوم سمائنا بأيدينا؟

تعد إنارة المدن والأبنية والحدائق والشوارع بالكهرباء سبباً لما صار يعرف بالتلوث الضوئي. فإنارة المدن قديمة في التاريخ، إذ كانت روما القديمة تضيء سوقها العامة وساحاتها بالمشاعل. وفي العام 1882م، كانت في نيويورك آلاف الأضواء، ولكنها لم تكن ساطعة: «هذه هي آلاف البقع الضوئية الصغيرة التي لا تؤثر على العتمة، إنها أضواء غاز، غاز النيون، عديم اللون والرائحة. لا شيء يمكنك قراءته غير أفق أسود مرقط بالضوء..»، هكذا وصف أحدهم المدينة آنذاك. أما مصابيح شوارع باريس في القرن التاسع عشر فلم تكن كافية لكشف تحركات «مدام بوفاري» السرية كما جاء في رواية غوستاف فلوبير. لكن الأمور صارت مختلفة تماماً في بداية القرن الحادي والعشرين.

بدأ العلماء قبل نحو ربع قرن بإجراء دراسات جادة حول هذا التلوث. وفي سنة 1989م وجد بيارانتو سانزانو وفابيو فالسيني من جامعة بادوا في إيطاليا وكريستوفر بولدر من جامعة كولورادو أن بعض صور الأقمار الصناعية لمدن ومصانع وحتى سفن الصيد تشبه إلى حد كبير حرائق هائلة تلتهم ظلام الليل. وبذل الثلاثة جهوداً كبيرة لوضع أول طريقة تمكّن من قياس الضوء والظلام. ووضعوا بالفعل أول أطلس من نوعه في هذا المجال. وكشفت أبحاثهم المذهلة أن ضوء مصباح كهربائي واحد في شارع معين يؤثر على الرؤية حتى مسافة 200 كلم عن موقعه. وتوقع سانزانو أنه في حال استمرار زيادة الأضواء بالوتيرة الحالية، فإن مجرة درب التبانة التي ننتمي إليها، لن تكون في مجال النظر في إيطاليا كلها بحلول العام 2025م.

ويشير الأطلس المذكور إلى أن هذا التلوث لا يطال العالم الصناعي فقط، بل العالم بأسره. وقد اقترح الدكتور دايف كروفورد من «الجمعية العالمية للسماء السوداء» أن تكون مصابيح المدن موجهة كلها صوب الأسفل، وليس إلى فوق. وأعطى مثالاً على ذلك تجربة مدينة تاكسون في ولاية أريزونا، والتي تعتبر أول مدينة تُحسن التعامل مع التلوث الضوئي، إذ استبدلت المصابيح التقليدية فيها بأخرى من السودويوم أقل توهجاً وتكلفة، ويذهل زائر هذه المدينة الجميلة من حفاظها على الليل دون حرمان المتنقل في شوارعها من الرؤية الجيدة.

ومع العلم بأن الناظر إلى السماء يفترض أن يرى في وضع طبيعي حوالي 2500 نجم، فإن بعض الأطفال في العديد من المدن العالمية سيولدون ويموتون من دون أن يروا النجوم. وثلثا سكان العالم و 99 في المئة من سكان المدن، و88 في المئة من سكان الولايات المتحدة، لا يرون سماء ليلية حقيقية من أماكن إقامتهم، وهذا ما دفع العالمة ويني برويز إلى الحديث عن «تدمير السماء» والقول: «إن النجوم صارت من ضمن الأنواع السائرة إلى الانقراض».

على صعيد آخر تشير آخر الأبحاث المتعلقة بتأثير الضوء الصناعي في الصحة إلى أن أجسامنا تعمل أفضل خلال ساعات النوم المعتمة. وأكد باحثون من جامعة بانسيلفانيا سنة 1999م أن الأطفال دون السنتين، الذين ينامون على الضوء الآتي من الشوارع، يتعرضون لمرض قصر النظر خلال الطفولة وخلال عمر المراهقة. ويقول الدكتور جورج برانيارد، أستاذ علم الجهاز العصبي والمخ من معهد جيفرسون الطبي: "ليس هناك من شك في أن الضوء هو منظم قوي لفيزيولوجيا الإنسان والتعرض إلى الضوء الباهر يؤثر في الكثير من وظائف الجسم الفيزيولوجية، بتعطيل الساعات الداخلية المنظمة لها، مما يؤدي إلى أمراض بيولوجية ونفسية كثيرة" ويقول الدكتور روبرت هان من "مركز السيطرة على الأمراض" في الولايات المتحدة: "النوم في غرفة معرضة لأضواء الشوارع يؤدي إلى أمراض سرطانية متعلقة بالهرمونات، ومنها سرطان الثدي" فالضوء يؤثر كثيراً في إفراز مادة Melatonin وهي هرمون يتعلق بوظيفة النوم والاستيقاظ وتعديل حرارة الجسم. ومن جانبه يقول عالم الدماغ، البروفسور روسل فوستر من "المعهد الملكي للعلوم" في لندن: "إن الذين يتعرضون للضوء الصناعي يصابون بمرض الحرمان من النوم المزمن".

الطيور، هي الأخرى، ربما تكون أكثر تأثراً بالتلوث الضوئي من الإنسان. فالكثير من الطيور المهاجرة يختزن في ذاكرته أنماطاً أرضية معينة في الليل والنهار تساعدها على الطيران خلال رحلاتها الطويلة بتحديد أماكن وجهتها. كما أن بعض هذه الطيور يستعمل المجرات لاستكشاف إبحاره.. ولكن هذه الطيور أصبحت اليوم منجذبة إلى أضواء المدن وناطحات السحاب وغيرها، التي تشوش عليها ذاكرتها.

وفي سنة 1945م قتل حوالي خمسين ألف طير لحقوا بشعاع ضوئي في قاعدة وارنر روبنز الجوية في جورجيا حيث اصطدموا بالأرض. وقدر مايكل ميزور من "برنامج التحذير من الضوء المميت في الولايات المتحدة أن عدد الطيور التي تسقط ضحية الضوء المخادع يقارب الـ 100 مليون سنوياً. وكما نعلم جميعاً فإن الطيور تبدأ بالغناء عند الفجر، لكن الأضواء الساطعة تخدعها باستمرار. وتشوش ساعات توقيتها الداخلية مما يجعل بعضها يقوم ببناء أعشاشه في الخريف بدلاً من الربيع ويكون لذلك عواقب وخيمة على توالدها.

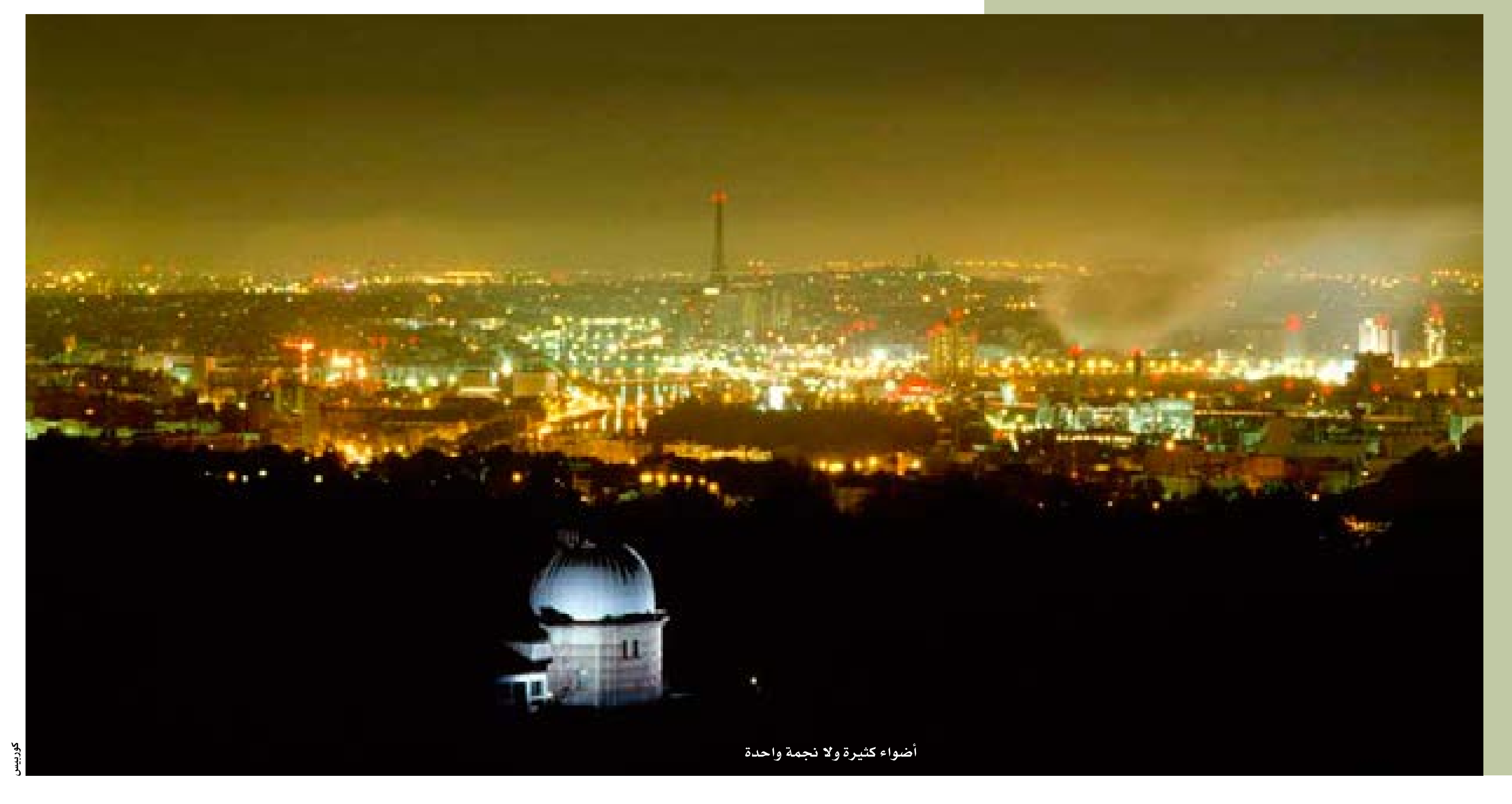
وهذا التلوث يؤثر في الحياة البحرية. فإناث السلاحف والخنافس تضع فراخها في الضوء الطبيعي على الشاطئ، فتنخدع بالأضواء الصناعية للشوارع والأبنية القريبة فتنتقل إلى الأماكن الخطأ. وهذا النوع من الحيوانات معرض، للانقراض خلال فترة ليست طويلة.

والأضواء الصناعية تؤثر أيضاً في بعض الأشجار فتحتفظ بأوراقها مدة أطول مما يؤثر في نموها الطبيعي ويعرضها لخطر الانقراض. كذلك تتأثر بعض الأزهار التي تتفتح في النهار وتغلق في الليل.

والتعبير نفسه "التلوث الضوئي" صاغه علماء الفلك والعاملون في المراصد الجوية الأرضية. وقد سمي أحياناً "العمى الضوئي". إنه الضوء الذي يحجب الرؤية. فكثير من المراصد لم يعد قادراً على العمل الجيد بسبب الوهج المتصاعد من الإنارة الصناعية، وأصبح من الضروري نقلها إلى أماكن أخرى.

هذا التلوث الذي يزداد سنة بعد سنة بوتيرة مخيفة يجعل من هواية رصد الفضاء هواية غير ممكنة. ويقول بعض العلماء إنه إذا استمر هذا الاتجاه فسيكون القمر هو الملجأ الوحيد لهم.

لقد أخذ الإنسان الآن بتوسيع النهار على حساب الليل. لكننا عشنا، ومنذ فجر التاريخ، مع الليل، والنجوم أصبحت جزءاً من حياتنا الروحية. ونحن العرب، ربما من أكثر الشعوب التي تغنت بالليل والنجوم قد نكون أكثر المتأثرين بهذا التلوث. إن جزءاً مهماً من ثقافتنا هو الشعر وسكون الليل وتلألؤ النجوم وسطوع القمر في سماء صافية. فهل يذهب ليل الشعراء والعاشقين وملجأ المتأملين وشفيع الملهمين مع ضوء الحضارة الحديثة؟



أضواء كثيرة ولا نجمة واحدة

قصة ابتكار

إشارة السير

كان ضباب لندن وخاصة في الليل مصدر قلق للمهندس الإنجليزي ج. ب. نايت، المتخصص في إشارات مرور القطارات وتنظيم حركتها. فخطر بباله أن يستعمل الإشارات الضوئية وابتكر مصباحين يعملان على الغاز أحدهما باللون الأحمر والآخر باللون الأخضر، لإيقاف القطارات وتسييرها. غير أن أحد المصباحين انفجر وقتل الشرطي المكلف بالمراقبة، مما أحبط إجراء المزيد من التجارب على هذه الفكرة.

بعد اختراع السيارة، وتكاثر أعدادها، ظهرت الحاجة إلى وسائل لتنظيم المرور، ولم تجد أنظار الباحثين ما تتوجه إليه غير الفكرة الإنجليزية القديمة، فظهرت أول إشارة سير بالألوان الثلاثة، الأحمر، البرتقالي، والأخضر لأول مرة سنة 1914م في أحد شوارع كليفلاند في الولايات المتحدة.

وفي العام 1918م، ظهرت إشارة السير لأول مرة في نيويورك، وبعدها بسنتين وصلت إلى مدينة ديترويت. وكانت إشارات السير هذه تقع في أعلى برج مبني وسط الشارع ويدعى «برج المرور»، وتدار يدوياً بواسطة شرطي يسهر عليها.

في العام 1925م، قررت بريطانيا اعتماد الوسيلة نفسها لتنظيم حركة السير فيها. وأول إشارة سير في لندن كانت تقع عند تقاطع شارعي البيكاديللي وسانت جايمس. بعد ذلك بسبع سنوات، تم تطوير إشارة السير في إنجلترا، بحيث صارت تعمل آلياً حسب كثرة السيارات. غير أن الصدفة العجيبة تكمن في أنه عند تجربة النموذج الأول منها في شارع كورنهيل في لندن، أدى تسرّب للغاز في غرفة التحكم إلى حصول انفجار ومقتل الشرطي بمجرد إضاءة المصباح للمرة الأولى. وبذلك تكون بريطانيا قد دفعت قتيلين ثمناً للابتكار الجديد.

وبمرور الزمن تطورت إشارات السير، فأصبحت تُدار بواسطة أجهزة كومبيوتر مركزية تتحكم بها. غير أن شكلها الظاهري أصبح أبسط مما كان عليه في ثلاثينيات القرن الماضي، إذ اختفت الأبراج الضخمة والأعمدة البرونزية المنحوتة والتي كانت تعلوها التماثيل في نيويورك ولوس أنجلوس لتصبح مجرد أعمدة معدنية ملساء، تعلو مصابيحها بعض الأحيان كاميرات للمراقبة.

ومعظم إشارات السير في العالم تعمل اليوم بالألوان الثلاثة الأحمر والبرتقالي والأخضر التي يُضاء الواحد منها بعد إطفاء الآخر، مع بعض الاستثناءات كما هو الحال في مدينة بوسطن الأمريكية حيث يضاء الأخضر والبرتقالي سوية.

غير أن أغرب إشارة سير في العالم هي تلك الموجودة في مدينة البندقية في إيطاليا وتقع عند تقاطع قنالين مائيين..!

قصة مبتكر

مايكل فاراداي

العبقري الذي علّم نفسه بنفسه



ولد مايكل فاراداي في سبتمبر عام 1791م في إنجلترا من والد يعمل حداداً لا يتقاضى سوى أجر زهيد، الأمر الذي دفع فاراداي إلى دخول ميدان العمل وهو في الثالثة عشرة من عمره، بعدما تعلم القليل من القراءة والكتابة، لإعالة أخوته الأربعة.

عمل في مخزن لبيع الكتب العلمية وتجليدها في لندن. وكان ينكب على المطالعة خلال أوقات الغداء وبعد الانتهاء من العمل. ومن الكتب التي وقعت بين يديه موسوعة "بريتانيكا" واستوقفه فيها مقال عن الكهرباء. انتقل إلى العمل في مشغل "دي لاروش"، وكان حين ينتهي من العمل يذهب للاستماع إلى محاضرات يلقيها الكيميائي البريطاني السير هامفري ديفي.

في العام 1812م وجه فاراداي رسالة إلى الجمعية الملكية يطلب فيها قبوله كمساعد في المختبر، فلم يحصل على جواب. واتصل بالعالم ديفي يطلب مساعدته لكن الأخير رفض، ثم عاد وقبله كعامل بسيط في مختبره.

بدأ فاراداي عمله كمنظف للأدوات ومشارك في تحضير المواد الكيميائية وأعطي غرفة للسكن في المختبر. وكان أن حدث انفجار داخل المختبر لدى اكتشاف العالم ديفي الصوديوم مما أدى إلى فقدان عينه اليمنى واضطره إلى طلب مساعدة فاراداي لقراءة مؤشرات الأجهزة وأرقامها.

رافق فاراداي العالم ديفي في جولة أوروبية، زار خلالها باريس ومونبلييه وفلورنسا ونابولي.
وبعد أن عاد إلى لندن عُيِّن أستاذاً مساعداً مسؤولاً عن التجهيزات في المعهد الملكي البريطاني، وبقي في خدمة ديفي، إلى أن قام بأول بحث بمفرده عن تحليل التربة التوسكانية ونشر مضمون هذه الدراسة في مجلة المعهد الملكي عام 1816م.

وتواصلت أبحاث فاراداي منذ ذلك الحين، ففي العام 1819م . قام بدراسات كيميائية اكتشف من خلالها مركبات عرفت باسم كلوريدات الهيدروكربونات و بعد اطلاعه على أبحاث العالم أورستد في أواخر العام 1821م عن تأثير التيار الكهربائي على اتجاه البوصلة، قام فاراداي بدراسة الموضوع، وتوصل إلى نتيجتين: الأولى أن عقرب البوصلة يغير اتجاهه تحت تأثير التيار الكهربائي ليشكل مع الوضع السابق زاوية قائمة، والثانية كانت تصميم جهاز فيه قطعة ممغنطة تدور من دون توقف حول الجسم الذي يمر فيه التيار الكهربائي.

وفي العام 1831م حوّل اهتماماته نحو دراسة الكهرباء فاكتشف قانون المحول الكهربائي وكيفية عمله، كما اكتشف ظاهرة الحث الكهرومغناطيسي ودرس عملية مرور التيار الكهربائي في مختلف الأجسام. غير أن أهم قانون وضعه يتعلق بكمية المادة التي تتراكم على الألكترود عند مرور التيار الكهربائي في محلول معين، وعرف هذا القانون باسمه.

توفي فاراداي في أغسطس 1867م مخلفاً إرثاً كبيراً من الاكتشافات وأسئلة كثيرة شغلت علماء الفيزياء والكيمياء على مدى أكثر من قرن كامل بعد وفاته.

صارت المياه المعبأة في قوارير هي المفضلة للشرب عند الكثيرين في العديد من بلدان العالم. ولكن إلى أي مدى يمكن الاطمئنان إلى هذه المياه؟ سؤال يجيب عنه الزميل محمد أبو المكارم في التقرير التالي:

مجموعة أسئلة تُثار بشأنها..

مياه الشرب..
من المنشأ إلى التعبئة والتخزين



تعد سلامة المياه من الهموم الصحية للدول والشعوب على مستوى العالم، خصوصاً وأن تلوث المياه يمكن أن يتسبب في كوارث. وقد كانت المياه فيما مضى أكبر مصدر لانتشار الأمراض كالكوليرا والتيفوئيد وغيرهما، ولعلنا نتذكر الوباء الذي عم البيرو قبل أعوام وانتشر منها إلى ستة عشر بلداً آخر في أمريكا اللاتينية وتسبب في إصابة أكثر من 600,000 شخص بالكوليرا، ونتج عنه حوالي 5000 حالة وفاة. وبعد التحري وُجد أن عدم تعقيم المياه هو العامل الأكبر لانتشار ذلك الوباء. يقول الدكتور عبدالله الرحيلي، أستاذ الهندسة البيئية المشارك بجامعة الملك سعود: إن اكتشاف بعض المركبات العضوية في عدد من مصادر مياه الشرب خلال الخمسين عاماً الماضية أدى إلى تحول كبير في أساليب معالجة المياه وفي النظر إلى مصادرها وحمايتها من التلوث البيئي.

وعلى الرغم من أن انتشار التعقيم والمياه المعبأة في قوارير حل كثيراً من تلك المشكلات، إلا أننا لا ينبغي أن نسلم بسلامة المياه التي نشربها معبأة فضلاً عن تلك التي تأتينا عبر الشبكة، كما يرى الدكتور نبيل فياض الذي يعمل بمركز الأبحاث في أرامكو السعودية وعدد من زملائه الذين قاموا بدراسة مخبرية على عينة من المياه المعبأة، بل يجب أن نسأل أنفسنا بعض الأسئلة عندما نمسك بقارورة الماء المعبأ:

هل يمكننا أن نطمئن إلى مياه القوارير؟
هل تخزينها أو نقلها في العراء صحي؟
هل هي أفضل من مياه الشبكة؟
وهل تستحق ما ندفعه فيها من مال؟

هناك الكثير من الأسئلة المشابهة التي ينبغي إثارتها، إذ يؤكد الباحثون ضرورة الاهتمام بسلامة مياه الشرب المعبأة ابتداء من المنشأ ومروراً بالتعبئة والتخزين حتى وصولها إلى يد المستهلك، فبعدما أصبحت مياه الشرب المعبأة في القوارير خياراً شعبياً للمستهلك في كل أنحاء العالم، بات من الضروري المحافظة على سلامتها من أي تلوث يمكن أن تتعرض له من أي مصدر.

القوارير

تستخدم القوارير البلاستيكية المصنعة من بولي فينيل كلورايد (PVC) أو بولي إيثلين منخفض الكثافة (LDPE) أو من البولي ستارين (PS). ويكثر استخدام قوارير الـ (PVC)، أكثر من غيرها. وقد أجريت اختبارات على بعض أنواع المياه والقوارير المستخدمة في تعبئتها، وخصوصا تلك المصنعة من الـ (PVC)، والعلاقة بينهما في ضوء أساليب التخزين ومدته.

تركيز الـ (PVC)

تعتبر البوليمرات، المستخدمة في صناعة البلاستيك المخصص لتعبئة الطعام والماء، خاملة بوجه عام ولا تمثل مخاطر على الصحة العامة. إلا أن البلاستيك الذي يحتوي على الـ (PVC) قد يحتوي على كميات ضئيلة جداً من أحادي كلوريد الفينيل (VCM)، إضافة إلى بعض المركبات الأخرى مثل الملدِّنات ومقاومات الأكسدة، والصبغات، وهذه المركبات بحسب دراسة الدكتور فياض وزملائه يمكن أن تنتقل من بلاستيك القارورة إلى المياه المعبأة فيها. وبما أنها تستخدم في صناعة أنواع عديدة من قوارير مياه الشرب، ولما قد ينتج عن هجرتها من القارورة إلى الماء من مخاطر على صحة الإنسان والبيئة، فقد أصبحت محور مناقشات علمية وبحثية.

وقد أظهرت تلك الدراسة نتيجة لفحص العديد من نوعيات المياه المعبأة أن تركيز الـ (VCM) فيها أقل من 0.6 جزء في البليون (ppb) وهو أقل بكثير من الحد الأعلى المسموح به دولياً والذي يصل إلى جزءين في البليون، الذي يمكن أن يتسبب تجاوزه في الإصابة بالسرطان، في حين تشير بعض الدراسات إلى أن التعرض المستمر لمادة الـ (PVC) قد يؤدي إلى حساسية والتهاب في الجلد، بحسب الدكتور إبراهيم المعتاز، رئيس قسم الهندسة الكيميائية بجامعة الملك سعود.

وتعرض الماء المعبأ لأشعة الشمس لا ينتج عنه -بحسب بعض الدراسات- زيادة تذكر في تركيز الـ (VCM)، إلا أن العديد من المركبات المتطايرة وشبه المتطايرة لوحظت حينذاك.

كما لوحظ وجود علاقة بين زيادة تركيز كلوريد الفينيل وزمن التخزين لعبوات المياه البلاستيكية. وقدرت هذه العلاقة كما نقل الدكتور المعتاز بمعدل

1 نانوجرام/لتر لكل يوم تخزين. وتجدر الإشارة إلى أن الحد المسموح بحصول الفرد عليه يجب ألا يزيد على 100 نانوجرام في اليوم من كلوريد الفينيل. لقد أبدى الباحثون قلقا بشأن قابلية الـ (PVC) للتحلل، وانتقال المركبات الداخلة في تصنيع القوارير للماء، وتأثير وسائل وأساليب التخزين في ذلك.

حلول مقترحة

وتؤكد نتائج دراسة الدكتور فياض وجوب تخزين الماء المعبأ في مكان بارد بعيداً عن أشعة الشمس، وعلى لزوم اتباع الوسائل نفسها والاحتياطات المتبعة لبقية أنواع الطعام على الماء المعبأ للحفاظ على سلامته، كما توصي باستخدام أنواع أخرى من البلاستيك غير الـ (PVC) لتخزين مياه الشرب.

المواصفات السليمة من مسؤوليات المصانع، ولكن بعضها يقع على عاتق المستهلك خاصة في مرحلة التخزين

في حين يشير الدكتور المعتاز إلى أنه يوجد في المملكة عدد من المواد البلاستيكية التي يمكن استعمالها عوضاً عن الـ (PVC)، ومن هذه الخيارات المتاحة: البولي إثيلين منخفض الكثافة LDPE. والبولي إثيلين مرتفع الكثافة HDPE، وبولي إيثيلين ترفثيليت PET، والبولي بروبلين، وغيرها.

مواصفات ومعايير

يجب أن تكون خواص المياه مطابقة لخواص مياه الشرب المعبأة والواردة بالمواصفة القياسية السعودية لمياه الشرب المعبأة وغير المعبأة رقم 84/409، ومنها ما يلي:

أولاً: الخصائص العامة

يجب أن تكون المياه المستخدمة في المصنع من مصدر نقي وغير ملوث وبعيدة عن مصادر التلوث.

ثانياً: الخصائص الطبيعية

1- ألا يزيد اللون على 15 وحدة (أ) بمقياس كوبلت بلاتين.

2- ألا تزيد العكارة على 15 وحدة (ب) بجهاز الشمعة لجاكسون.

3- الطعم والرائحة مقبولان.

ثالثاً: الخصائص الكيميائية

أ - ألا تزيد نسبة النترات على 45 جزءاً في المليون (10 أجزاء في المليون نيتروجين)، ولا تزيد نسبة النترات والنيتريت والأمونيا مجتمعة على 10 أجزاء في المليون نيتروجين.

ب - ألا يحتوي على العناصر المعدنية التالية بتركيزات تزيد على الحدود الموضحة بالجدول التالي:

المادة	الحد الأقصى للتركيز (جزء في المليون)
الزرنيخ	0.05 خمسة من المائة
الباريوم	1.0 واحد
الكاديوم	0.01 واحد من المائة
(سداسي التكافؤ)	0.05 خمسة من المائة الكروم
السيانيد	0.05 خمسة من المائة
الرصاص	0.05 خمسة من المائة
السيلينيوم	0.01 واحد من المائة
الفضة	0.05 خمسة من المائة
الزئبق	0.001 واحد من الألف
الكلوريد	250.00 مائتان وخمسون
النحاس	1.0 واحد
الحديد	0.3 ثلاثة من عشرة
العسر الكلي (مقدار كربونات كالسيوم)	300 ثلاثمائة
القدرة على التوصيل الكهربائي	500 - 100 ميكرومهموز/سم
الكالسيوم	75.0 خمسة وسبعون
المغنيسيوم	30.0 ثلاثون
المنجنيز	0.05 خمسة من المائة
الفينولات	0.01 واحد من المائة
الكبريتات	250.0 مائتان وخمسون
الخارصين	5.0 خمسة

ج - أن تتراوح نسبة المواد الصلبة الذائبة الكلية بين 100 جزء في المليون و700 جزء في المليون.

د - أن يكون الحد الأدنى المسموح به للرقم الهيدروجيني 6.5 والحد الأقصى المسموح به 8.5.

هـ - ألا يقل تركيز الفلوريد عن 0.6 جزء في المليون ولا يزيد على 1 جزء في المليون.

و - في حالة معالجة المياه بالكلور أو بالأزون أو بالأشعة فوق البنفسجية أو بمحلول اليود أو بأية وسيلة أخرى يجب أن تكون هذه المعاملة كافية لقتل الميكروبات.

ز - ألا يزيد تلوث المياه بالمبيدات التالية على الحدود الموضحة أدناه.

المادة	الحد الأقصى للتركيز (جزء في المليون)
أندرين	0.0002 اثنان من عشرة آلاف
لندين	0.004 أربعة من الألف
ميثوكسي	0.1 واحد من عشرة
كلورفينوكسي	0.005 خمسة من ألف توكسافين
4.2 ثنائي كلورفينوكسي حمض الخليك	0.1 واحد من عشرة
5.4.2 ثلاثي كلورفينوكسي حمض البروبيك	0.01 واحد من المائة

رابعاً: الخصائص الإشعاعية

ألا تحتوي المياه على مواد مشعة بكمية تزيد على التركيزات التالية:

المادة	الحد الأقصى للتركيز (جزء في المليون)
مركب راديوم - 226	3
التركيز الإجمالي لمشعات ألفا (متضمنة الراديوم 226 واستثناء الرادون واليورانيوم)	10
سترنشيوم - 90	30
التركيز الإجمالي لمشعات بيتا (بغياب سترنشيوم - 90 ومشعات ألفا)	1000

خامساً: الخصائص الحيوية

أن تكون المياه خالية تماماً من الحشرات أو بويضاتها أو يرقاتها أو حويصلاتها أو أجزائها أو الكائنات الحية الأولية ومن ضمنها الأميبا، وأن تكون خالية من الطحالب والفطريات.

سادساً: الخصائص الميكروبيولوجية

يجب أن تكون المياه خالية من الميكروبات المرضية التي قد تسبب ضرراً على الصحة العامة وذلك حسب الاختبارات الخاصة بذلك، وأن تكون الحدود القصوى للتلوث ببكتريا المجموعة القولونية كما يلي:

أ - في حالة استعمال طريقة التخمر المتعدد الأنابيب: ألا تظهر أكثر من وحدة من وحدات التحليل في العينة عدداً أكثر احتمالاً من 2.2 أو أكثر لإحياء المجموعة القولونية لكل 100مل. كما يجب ألا تظهر أية وحدة من وحدات التحليل عدداً أكثر احتمالاً لمجموعة القولون من 9.2 أو أكثر لكل 100 مل.

ب - طريقة الترشيح الدقيق: ألا تحتوي أكثر من وحدة من وحدات التحليل في العينة على 4 لكل 100مل من بكتريا مجموعة القولون، وألا يزيد المتوسط الحسابي لعدد بكتريا المجموعة القولونية على 1 لكل 100 مل.

هذه هي بشكل عام المواصفات التي يجب أن تتحلى بها مياه الشرب المعبأة بالقوارير، لكي تستحق فعلاً اطمئناننا إليها. ومن شاء التفصيل فليراجع لائحة الاشتراطات الصحية الواجب توافرها في مصانع مياه الشرب المعبأة الصادرة عن وزارة الشؤون البلدية والقروية في مطبوعاتها، أو على موقعها: www.momra.gov.sa. وإذا كان تأمين معظم هذه المواصفات يقع على عاتق شركات التصنيع، فإن بعضها ولا شك، مثل طريقة التخزين، يقع على عاتق المستهلك. وبمراعاة هذه الشروط من قبل الطرفين يمكن القول إننا رأينا فعلاً الماء الذي نشرب.

الماء بالأرقام

بلغ حجم المياه الكلي في الأرض حوالي 1360 مليون كيلومتر مكعب، إلا أن 97% من هذا الماء مالح في البحار والمحيطات و2% عذب تكوّنه الأنهار والجبال الثلجية و1% يوجد في الأحواض الجوفية العميقة التي يصعب استغلالها.

ويستهلك سكان المملكة 986 مليوناً و694 ألفاً و557 متراً مكعباً (م^3) من المياه سنوياً (عام 1417هـ) منها 477 مليوناً و659 ألفاً و104 م^3 من مياه الآبار و509 ملايين و35 ألفاً و435 م^3 من مياه التحلية، بزيادة 12% (111 مليون م^3) عن عام 1413هـ.

وتؤكد تقارير عدة أن الاعتماد على مياه الشرب المعبأة بقوارير يتزايد بوتيرة ملحوظة في بلدان الشرق الأوسط وأوروبا وإفريقيا. وعزت أسباب ذلك إلى عدم اطمئنان الناس إلى شبكات جر مياه الشفة في بعض البلدان، والتقنين في التوزيع عبر الشبكات في البلدان، وزيادة الوعي حول أهمية نظافة المياه ومواصفاتها التي تحظى وهي في القوارير بثقة المستهلك أكثر من غيرها.

في إطار السباق المحموم ما بين الساعين إلى أعمال غير قانونية، والمجتمع ممثلاً بأجهزته الأمنية، تكاثرت الاكتشافات والاختراعات في مجالي المراقبة والتحري، فبدأت تدق أبواب الحياة الخاصة للفرد.
الدكتور **غازي حاتم*** يحدثنا عن هذا الموضوع..

هل أطاحت التكنولوجيا بخصوصية الأفراد؟

يحظى موضوع الكشف عن الأشياء المخفاة عند البشر باهتمام كبير، إذ تتنوع الأجهزة المخصصة لذلك، منها كواشف المعادن وكواشف الأشعة السينية، وتلك العاملة على الأشعة ما تحت الحمراء أو الموجات ما فوق الصوتية.. وقد تزايدت مؤخراً الاكتشافات والاختراعات في مجالي التحري والمراقبة، ومنها آلة جديدة أطلق عليها اسم «لوميديجم». هذه الآلة تحلل الطريقة التي يعكس بها جسمك الضوء بألوان مختلفة، حيث تؤثر - على ما يبدو - كمية الدهون ولون الجلد وآثار الجروح القديمة وعلامات أخرى في الطيف الضوئي الناتج والذي يختلف من شخص إلى آخر. وقد دخل الاختراع الجديد حيّز الخدمة الفعلية في بعض الجامعات الكبرى في أمريكا، وذلك في مجال السماح بالدخول إلى المختبرات السرية للأشخاص المعنيين فقط. ويفكر مخترعوه الآن في تطبيقات جديدة متعلقة به، مثل تصميم مسدس ذكي يطلق النار فقط عندما يتأكد من أن الإصبع المضغوط على الزناد هي إصبع صاحب المسدس، إضافة إلى تصميم هواتف وسيارات وحواسب وأدوات منزلية لا تعمل إلا من قبل الأشخاص المرخّص لهم.

* أستاذ في جامعة تشرين، سوريا

في شهر مايو من العام 2001م، توقع الروائي الذائع الصيت دايفيد برين أن تتمكن التكنولوجيا من تجاوز أي حاجز نقيمه لحماية خصوصياتنا، ورأى أنه «سيكون من الممكن في المستقبل أن نخفي كاميرا في ذبابة صناعية». وفي شهر ديسمبر من العام التالي، أخذ توقعه مجراه، إذ قدمت جهات مختصة في إحدى الدول المتقدمة عرضاً تنوي من خلاله إنشاء مراكز مراقبة كبيرة وواسعة للتحري عن بصمة أي شخص مقيم فيها.

> **الأمن والسلامة سيتحسنان أكثر فأكثر.. إنه سلاح ذو حدّين، وكل شيء يتوقف على طريقة استعماله**

وفي الواقع، يعرف الكثيرون أن العديد من الأماكن العامة مثل المؤسسات والمطارات مراقبة منذ سنواتٍ طويلة. ولكن تطور أجهزة التقصي والتحري في الآونة الأخيرة جعل من الممكن القيام بمراقبات متشددة وجديدة في شكلها دون أن ينتبه الأشخاص إلى ذلك، فبالكاد تنبه الذين حضروا بطولة كرة القدم الأمريكية الوطنية في تامبا في شهر فبراير 2000م، إلى الكاميرا التلفزيونية التي كانت تصوّر كل شخص يدخل إلى الملعب، حيث شغّلت شرطة فلوريدا طرازاً أولياً من المراقبة المعتمدة على القياس الحيوي، تتم من خلالها مقارنة ملامح آلاف الأشخاص الذين يدخلون إلى الملعب مع ملامح مرتكبي الجنح والمجرمين، الذين لهم ملفات أمنية قيد البحث أو الشك. كما أصبحت بعض قوى الأمن في بعض الدول مجهزة بمسجلات حرارة تسمح بتأمل التحركات ضمن بيت ما، الأمر الذي يعني تقدماً إلى الأمام في مسيرة المجتمع نحو اقتحام الحياة الخاصة للفرد.

إلى ذلك يجب ألاَّ ننسى موضوع مراقبة العمال من قبل رؤسائهم في المجالات المختلفة كالمجالات الإلكترونية والشخصية، لما لهذا الموضوع من حضور في معظم الشركات والمؤسسات المتوسطة والكبرى في الدول المتقدمة، إذ أدت المراقبة ولا تزال تؤدي يومياً إلى نشوب خلافات ومحاكمات وعمليات طرد واستقالات. والأسباب التي تؤدي إلى قيام الإدارات بمراقبات عمالها تكمن أساساً في استغلال البعض لمواقعهم في العمل للقيام بأعمال خاصة لا تتعلق بالعمل بأي شكل من الأشكال، ولا سيما عندما يكون عملهم مرتبطاً بالكومبيوتر. ولكن مراقبة أداء العمال لدواعٍ مهنية يمكنها أن تصل بالمراقب عمداً أو سهواً إلى مسائل شخصية تخص المراقَب وحده.

ومما لا شك فيه أن خفض أسعار التكنولوجيا الجديدة المتعلقة بالمراقبة، وحالة الخوف التي يعيشها الناس في أماكن مختلفة من العالم، وظهور تقنيات متقدمة جداً، كل هذه المستجدات دفعت أقسام الشرطة، البنوك، المتاجر، الوكالات الدولية، الملاعب، الحدائق الترفيهية، ورؤساء أقسام العاملين... إلى استعمال كل أنواع الكاميرات، وقواعد البيانات، وطرق الكشف المتنوعة بهدف الحصول على معلومات شاملة وموثقة تسمح بالكشف عن احتمالات القيام بمخالفة أمنية أو مالية أو بالتحري عن المسؤولين عن هذه المخالفات في حال حدوثها، أو حتى لمعرفة ما يجري من خلف ظهورهم.

وفي خضم هذا الجو الرقابي الكبير، بدأ بعض المختصين بدق ناقوس الخطر حيال ما يهدد خصوصية الأفراد في العالم بشكل لا سابق له، فأصبحت الأصوات ترتفع لتعلن رأيها في هذا الأمر، ومن بينها صوت غريغ ويتكر، مدرّس العلوم السياسية في جامعة تورنتو الكندية، الذي قدّم دراسات كثيرة حول أجهزة المراقبة وحماية خصوصية الإنسان. وفي رأيه إن التكنولوجيا تسمح لمن يريد أن يقوم بمراقبة الآخرين بأن ينجز ذلك، وبالرغم من أننا لسنا مراقَبين في كل لحظة نعيشها، فقد أصبحت كل التعاملات أو كل أشكال التواصل مع الآخرين، التي تُنجز بتكنولوجيا جديدة، مراقبة من قبل شخص ما، وهذا الأمر يدعو إلى وجود مدافعين عن الخصوصيات، لا سيّما وأن الاختراعات والاكتشافات في عالم المراقبة تتطور بسرعة هائلة، الأمر الذي يعني أن مساحات الخصوصيات لكل فرد تتقلص أكثر فأكثر. ولكن الأمن والسلامة سيتحسنان أكثر فأكثر.. إنه سلاح ذو حدّين، وكل شيء يتوقف على طريقة استعماله.

الطبع أم التطبع؟

لا جدوى من السؤال...

كان الطبيب اليوناني هيبوقراطس أول من تساءل في القرن الرابع قبل الميلاد حول ما إذا كان الدماغ البشري هو الذي يحدد سلوك الفرد أم تطبعه بتأثيرات اجتماعية خارجية.



واستمر السؤال زمناً بعد زمن وتضاربت الأجوبة، إلى أن ظهرت الخريطة الجينية. فالباحثون في علوم الدماغ الذين حاولوا فهم عمله قدموا أخيراً معطيات تؤكد استحالة الوصول إلى ذلك.

من هذه المعطيات أن الدماغ البشري لأي فرد يحتوي على ترليون (1012) عصبة، وكادرليون (1015) نقطة تشابك للكروموزومات (Synopsis) قادرة جميعها على التغير خلال جزء من الألف من الثانية.

من جهة أخرى، فإن الأرض تحتوي على ستة مليارات من البشر الذين يؤثر بعضهم في بعض. ومن الإحصاءات المقدمة في هذا المجال، أن حجم المكالمات الهاتفية في العالم بلغ خلال العام الماضي 160 مليار دقيقة، بمعدل يتراوح ما بين 120 و 150 كلمة في الدقيقة الواحدة.

ويؤكد الباحثون أن هذه الأرقام المذهلة في ضخامتها، هي نقطة في بحر من المعطيات التي يجب توافرها واحتساب أهمية كل عنصر فيه على حدة، للتوصل إلى فهم عمل الدماغ فهماً كاملاً، الأمر الذي يبدو ضرباً محالاً، ويجعل من كل محاولات الإجابة عن السؤال حول الطبع والتطبع مجرد تخمينات متناقضة.. لا بل يتعدى الأمر ذلك ليؤكد أن لا جدوى من طرح السؤال نفسه.!

الفضاء تملأه المواد السوداء

هل يواجه علم الفضاء مصيراً مظلماً؟ تكاد تجمع مصادر رصد الفضاء على أن كل ما نعرفه من أجرام سماوية بما في ذلك النجوم التي ترى أو لا ترى لا يشكل أكثر من 4% فقط من مادة الكون والباقي هو مادة غامضة تتوزع ما بين مادة سوداء لا ترى وما يسمى بالطاقة السوداء التي بدأ علماء الفضاء النظر في أمرها حديثاً، وما زالت تستعصى على الفهم.

فهذه الطاقة التي تسهم برأي العلماء في دفع الكون إلى التمدد وكأنها خاصية من خصائص الكون الذاتية يمكن أن تكون أي شيء! وهذا المنعطف في فهم الكون يعيد هذا العلم إلى ضياع ظن أنه بدأ يخرج منه، ويعيده كذلك إلى نظرية كان قد طرحها العالم الفرد أنشتاين عام 1917م، وأسقطها بنفسه بعدما اعتبرها أكبر هفوة ارتكبها في حياته!

...ويضيق بالنفايات

عند بداية غزو الفضاء كان الاعتقاد السائد بأنه كبير جداً ويتسع بسهولة لمخلفات الصواريخ والأقمار الصناعية بعد انتهاء خدمتها، إلى أن قُرع جرس الإنذار في العام 1996م أولاً عندما راح القمر العسكري الفرنسي "سيريز" يدور فجأة وبسرعة حول نفسه ليتعطل ويخرج عن العمل في 24 يوليو من ذلك العام، واكتشفت أجهزة الرصد الأمريكية أن الحادث نجم عن ارتطام القمر الصناعي المذكور بجزء من حطام كان خلفه وراءه الصاروخ الأوروبي "أريان" قبل عشر سنوات.

وكشفت دراسة أعدها المركز الأمريكي لاتصالات الفضاء أخيراً أن الوزن الإجمالي "للنفايات" الفضائية التي تدور حول الأرض يبلغ نحو ثلاثة آلاف طن، ويتابع المركز المذكور على مدار الساعة حركة تسعة آلاف قطعة منها ما يزيد طولها على عشرة سنتمترات.

وتتوزع قطع هذه الأقمار الصناعية التسعة آلاف على الشكل الآتي: 6% أقمار صناعية ناشطة، 21% أقمار صناعية بالية، 17% الطوابق العليا من الصواريخ، 13% مخلفات العمليات، 43% شظايا الاصطدامات.

ويضيف تقرير المركز أن هناك أيضاً نحو 200,000 قطعة أخرى يزيد طولها على السنتمتر الواحد، ونحو 35 مليون قطعة دون السنتمتر! فهل يتسع الفضاء للمزيد؟

Science et Vie D.R.

قريباً .. جزيرة جديدة في المتوسط!

المقصود بـ (قريباً) هنا هو أن الأمر سيحصل خلال أسابيع أو أشهر معدودة وليس بعد سنوات.

فعلى بعد ثلاثين ميلاً بحرياً من شواطئ جزيرة صقلية تصاعد النشاط البركاني خلال الأشهر الأخيرة وراح يدفع بجبل صخري نحو سطح الماء. سفح هذا الجبل يقع على عمق 150 متراً تحت سطح البحر، أما قمته التي كانت على مدى قرن ونصف القرن من الزمن على عمق 25 متراً أصبحت في شهر مارس من العام 2001م على عمق 8 أمتار، وفي سبتمبر 2002م على عمق 6 أمتار، وخلال الربيع من هذا العام على عمق 5 أمتار فقط. كما أن حرارة المياه في محيطها والتي تكون عادة حوالي 14 درجة مئوية قفزت إلى 21 درجة، ما يشير إلى وجود نشاط بركاني قوي في باطن هذا الجبل.

وكانت هذه الجزيرة ظهرت في العام 1831م، وتسببت في نزاع سياسي حول ملكيتها بين إيطاليا وبريطانيا التي كانت تحتل جزيرة مالطا المجاورة. غير أن النزاع حسم على "يد" النشاط البركاني الذي أعاد الجزيرة إلى عمق 25 متراً تحت سطح البحر. أما اليوم فالإيطاليون سارعوا إلى زرع علمهم فوق الموقع على عمق خمسة أمتار تحت سطح البحر، استباقاً لمطالبة الدول المجاورة بملكية الجزيرة الواقعة في المياه الدولية بين إيطاليا ومالطا وتونس وليبيا.

الموز ينقرض بعد عشر سنوات!

الموز بات مهدداً بالانقراض. هذه الصيحة التحذيرية والمتشائمة أطلقها أخيراً العالِم البلجيكي غميل فريزون رئيس "الشبكة الدولية لأبحاث الموز". ويشرح فريزون المعطيات التي أطلق على أساسها تحذيره هذا بالقول إن وباءً فطرياً جديداً يدعى "سيغاتوكا" بدأ يضرب حقول الموز في أكثر من مكان في العالم. وأن قدرة الموز على مواجهة الوباء شبه محال.

فالمعروف أن هذه الفاكهة اللذيذة والشعبية في العالم بأسره لا تتكاثر عن طريق التلقيح بين ذكر وأنثى، ولا بذور لها، بل تتكاثر بانفصالها عن بعضها، الأمر الذي يضعف كثيراً مواجهتها للأوبئة لأن تركيبتها الجينية غير قابلة لأن تطور نفسها.

ويدعم فريزون صحة رأيه بالقول إن معظم الموز المستهلك الآن في العالم هو من فصيلة "كافندش" التي حلت محل فصيلة أخرى تدعى "غروميشال" استمر العالم في إنتاجها حتى منتصف الخمسينيات من القرن الماضي، ولكنها انقرضت بفعل وباء فطري عرف آنذاك بـ وباء "بناما".

وفصيلة "كافنديش" التي لم تتأثر بوباء "بناما"، تنهزم اليوم أمام الوباء الجديد الذي بدأ يضرب المحاصيل في إفريقيا منذ الثمانينيات الميلادية، وهبط بإنتاج أوغندا من الموز بنسبة 40 في المئة خلال سنة واحدة، ووصل إلى حوض الأمازون في أمريكا الجنوبية قبل خمس سنوات حيث دمر آلاف المزارع ولا يزال مستمراً في الانتشار.

المحترف السعودي

فوائد العمل في البستان للمتقدمين في السن

يتطلع البعض إلى عمل المتقدمين في السن بزراعة الحديقة المنزلية أو البستان على أنه مجرد تسلية أو وسيلة لتمرير الوقت. غير أن دراسة أجراها عدد من الباحثين ونشرتها مجلة "جورنال أوف نورسينغ" الأميركية، توصلت إلى تعداد ست عشرة فائدة على الصعيدين الجسدي والنفسي لعمل المتقدمين في السن بالزراعة.

ومن أبرز هذه الفوائد على الصعيد الجسدي: تمرين العضلات والمفاصل على الحركة، جعل ضربات القلب أكثر انتظاماً، والتعرض لأشعة الشمس ما يساعد على امتصاص الفيتامين (د) وزيادة كثافة العظام التي عادة ما تكون مهددة بالترقق بتقدم السن.

غير أن الآثار النفسية الإيجابية التي يتركها العمل في البستان أكثر من ذلك بكثير، نكتفي بالإشارة إلى بعضها وهي: القبول بدورات الحياة كواقع طبيعي، الإحساس بالجمال الذي يؤمنه البستان وحياة النبات فيه، شعور المتقدم في السن بالإنتاجية، شعور بالعناية بشيء حي، شعور بالاستقلالية.. وفوق ذلك كله يبقى البستان مكاناً آمناً للتجوال.

اطلب العلم

كتابة العلم في علم الكتابة!

كم من قارئ شكا في السر أو العلن من عدم قدرته على فهم مقال ما، سواء أكان في العلم أو حتى في الاجتماع والآداب. وفي الغالب يعزو القارئ ذلك إلى نقص لديه في مواكبة المفاهيم أو الاكتشافات أو عدم تخصصه في الحقل الذي يتناوله المقال. وقد طرحت مجلة "نايتشور" Nature هذه المسألة لتبين أن عدم الفهم كثيراً ما ينشأ عن سوء الكتابة. وطرحت مثلاً على ذلك مجموعة من الجمل التي تبدو مستعصية على الفهم للوهلة الأولى، ثم أعادت كتابتها بشكل سليم وبسيط لتبين أن الصعوبة ناشئة عن علّة في الكاتب وليس في القارئ. ولاحظت أن تدريب العلماء على الكتابة العلمية غير مدرج في برامج التعليم الجامعي.

وتحاول بعض المجلات الالتفاف على هذه الصعوبة بأن تطلب من المؤلف أن يكتب ملخصاً مبسطاً لمقالته يتفادى فيه التعابير غير المألوفة وذلك تسهيلاً لاستيعابها من القراء. وكانت المجلة نفسها قد أجرت بحثاً مقارناً بين المجلات العلمية والصحف اليومية امتد لمائة عام معتمدة قياساً علمياً طوره أحد العلماء في جامعة كورنيل. وتبين من هذه الدراسة أن الفارق في مدى صعوبة فهم المقالات العلمية بدأ بسيطاً وأصبح اليوم شاسعاً للغاية. وهذا ما جعل الكثير من العلماء يُبدون قلقاً على مستقبل الكتابة العلمية.



وحقيقة الأمر هي أن صعوبة الفهم لا تنشأ دائماً عن سوء التعبير أو صعوبة الموضوع بذاته، إنما عن ميل لدى بعض الكتاب إما لاستعراض عضلاتهم الكتابية أو محاولة إيهام القارئ بعمق الموضوع. ومن أشهر الوقائع في هذا المجال ما فعله عالم الاجتماع الكبير سي. رايت ميلز في كتابه "التخيّل الاجتماعي"، حيث خصص فصلاً من الكتاب لإلقاء الضوء على نظريات اجتماعية كانت رائجة في ذلك الوقت تعرف بالنظريات الكبرى Grand theories. فأخذ مقاطع من أهم كتاب تلك المدرسة، إذا قرأتها يصعب عليك فهم أي شيء منها. ثم أعاد ميلز كتابة كل مقطع بلغة بسيطة، تقرأه فتفهم المقصود، ثم تعود فتقرأ المقطع الأصلي وإذ بك قادر على تتبع الأفكار. ويتضح من هذا أن الصعوبة مفتعلة بشكل فاضح، وأنها محاولة لإعطاء أفكار عادية عمقاً مصطنعاً!

كان الناقد الفني الفرنسي المعروف رينه هويغ يردد دائماً أن للفلسفة لغتها الخاصة ولعلم الاجتماع لغته الخاصة وللنقد الفني لغته الخاصة أيضاً. واستعمال التعابير الفلسفية أو الآتية من علم الاجتماع، في مقالات نقدية أو أدبية يجب أن تكون بسيطة وواضحة، لا يؤدي سوى إلى ضياع المعاني وخسارة القارئ.

وأخطر ما في هذه الممارسات عزوف القراء عن القراءة في مواضيع كثيرة ربما من أبرزها في صحافتنا العربية كتابات النقد الأدبي والفني التي تحولت نسبة كبيرة منها إلى استعراضات في التركيبات اللغوية المعقدة والفارغة من أي مضمون حقيقي. وإذا كانت هناك اليوم حملة إنسانية عامة للعودة إلى القراءة فربما يترتب علينا أن نبدأ أولاً بالعودة إلى الكتابة.

عبود عطية

عين جوالٍ وعدسة صياد ونظرة مداعب.. سامر معضاد جال مختلف أرجاء المملكة يتعرف على ملامح الناس والأماكن.. يصور ثم ينظر ثم يتأمل. هنا بعض صوره التي التقط أغلبها في العام 2002م.

انتبه...



الضاحية الجنوبية لمدينة الرياض

سامر معضاد

ولد سامر معضاد في لبنان سنة 1964م، وحاز على دبلوم في التصوير الفوتوغرافي في بلجيكا عام 1988م والتحق بوكالة "فو" في باريس سنة 1990م.
نال لاحقاً دكتوراة فخرية في فن التصوير في جامعة "لياج" وأنشأ "المؤسسة العربية للصورة" في بيروت سنة 1997م.
جال في أرجاء البلاد العربية، فكانت الحصيلة ثلاثة كتب هي: "أطفال الحرب"، "العودة إلى غزة"، و"عالمي العربي"، ومجموعة أعداد خاصة من مجلة "دو" السويسرية، كان آخرها بعنوان "المملكة العربية السعودية 2002 - 2003م".



محاضرة في مكتبة الملك عبد العزيز العامة



مهرجان الجنادرية



أعمال بناء



مزرعة في الخرج



عدسات

سامر معضاد/Arab Images

مدائن صالح

لعصر امتلكته المعاصرة

بشكل أو بآخر فإن المعاصرة خاصة بهذا العصر لا غيره. إنها ليست مجرد مجاراة لعصر.. أي عصر، بل عصرنا دون غيره من العصور

ويكاد لا يحق لأي عصر سابق أن يطلق هذه الصفة على فن من الفنون ظهر في زمانه. فالفن الإغريقي سماته إغريقية، وسمات الفرعوني فرعونية وكذلك الروماني والبابلي وغيرها. أما في عصرنا فالفن معاصر!

إيقاع سريع في الموسيقى، أشكال مختزلة وخطوط بسيطة في الفن، مساحات عملية هندسية التكوين في العمارة، المعدات والآليات بسيطة متشابهة في الخارج مع دقة شديدة وتعقيد محكم في الداخل، أما في الكتابة فهناك الدخول المباشر في الموضوع دون مقدمات طويلة، مع إيجاز منظم في طرح الأفكار. هذه بعض سمات المعاصرة!

وتستطيع أن تختصر المعاصرة كذلك بما هو عملي. فالعملي معاصر كما أن المعاصر عملي. فكثير من الأمور في الملبس والمأكل والمشرب تقبل على بساطتها أو عللها أحياناً لأنها عملية. وغدت الفكرة العملية تطال أموراً حياتية كثيرة، حيث يرضخ الإنسان أحياناً لما هو غير مستحب في ميزان عاداته وتقاليده لأنه «عملي».

وهذه المعاصرة وروحها العملية بدأت منذ قرنين تقريباً مع النهضة الصناعية ومتطلباتها والمكانة التي وضعتها للعمل والإنتاج.

وأبلغ ما أفرزته النهضة الصناعية، هو المدينة المعاصرة بهندسة معمارها ووتيرة حياتها وإيقاع حركتها ونشاطها، فهي الابنة الشرعية للصناعة والتجسيد الأكمل للمعاصرة. فلا معاصرة بلا مدينة، ولا مدينة بلا معاصرة.

وللمرّة الأولى تصبح الإنسانية كلها أسيرة نمط شبه موحد في الحياة لا يكاد يختلف في مكان عن الآخر إلا في تفاصيل عرضية. وللمرّة الأولى تجد نفسها مستسلمة إلى حقيقة أنها لم تعد تقوى على أن تغير في هذا النمط إلا من داخله، لا بل لا تقوى على أن تقاوم جنوح هذا النمط نفسه إلى التغيير الدائم.

إن المعاصرة غيرت وجه العالم كما لم تفعل أية حركة حضارية سبقتها، جعلت التغيير نفسه أرفع مبادئها وقيمها. فكل شيء ينتج عن فكر الإنسان وتصنعه يداه قابل لإعادة النظر والتطوير بلا تردد أو انتظار. وأصبح التغيير هاجساً والجرأة على التغيير حقاً. وأصبح السباق الوحيد الممكن هو بين تغيير وتغيير، وبين معاصرة ومعاصرة، حيث المضمون هو القيمة الفصل.

كميل حوّا



مزرعة في الضاحية الجنوبية لمدينة الرياض



شباب

يمثل منتصف العمر مرحلة الاستعداد لبناء بيت الأسرة .. ففيه يتم اختيار الأرض وشراؤها، ثم يبدأ الاستعداد للبناء. وغالباً، يظن صاحب المشروع أنه يخوض تجربة بديهية مفهومة لكل الناس. فجأة، يجد نفسه أمام أسئلة تغيب إجابات بعضها، ثم يواجه أسئلة أصعب تبدأ بمسألة (تفصيل البيت) ولا تنتهي عند استلام المفاتيح. يتساوى في ذلك أصحاب المداخيل المرتفعة والمحدودة. إلى درجة أن الجميع يرددون أثناء عملية البناء الطويلة المثل السائد: «العمار قطعة من نار».

فكيف تتفادى - قدر المستطاع - المزالق وتحصل على إجابات عن أسئلتك؟ فيما يلي رؤيتان واحدة لمتخصص بارز في الهندسة المعمارية، والأخرى موجزة لصاحب تجربة..

أتبني بيتاً؟ لحظة من فضلك

1 تصميم المسكن: محاولة للتفاعل مع الحياة

د. مشاري النعيم

لا أعلم لماذا عندما نفكر في الحديث عن المسكن تتدافع كثير من الأفكار والمتطلبات وكأن الموضوع يضج بقضايا لم تجد لها حلولاً حتى الآن. فأنا وحتى هذه اللحظة لم أجد من هو راضٍ تمام الرضا عن المسكن الذي يعيش فيه. ربما يكون عدم الرضا متوقعاً ولكن هل من الممكن تقليله، أو على الأقل إعطاء فرصة للساكن أن يبحث عن حلول ذاتية تمكنه من معالجة ما لا يرضيه في مسكنه؟ إننا نتحدث عن ظاهرة إنسانية وكائن حي هو المسكن، وتعاملنا معه على أنه كائن حي هو الحل الوحيد للكثير من المشكلات التي يمكن أن نتفاداها في المستقبل. الحقيقة إن هناك من يبحث عن بعض النصائح حول تصميم وبناء مسكنه، وهذا أمر طبيعي بل ومحبذ ولكن هناك ما هو مختلف في كل منا وما هو مشترك، وفي رأيي إن ما هو مختلف أكثر أهمية بالنسبة للمصمم مما هو مشترك على الرغم من أن مصمم المسكن عادة ما ينطلق في تصميمه من الصورة الاجتماعية - الثقافية قبل الخصوصية الفردية لصاحب المسكن. ولكن في نهاية الأمر ما يميز المسكن هو هذه الخصوصية التي يجب على المصمم أن يفهمها بعمق ويعكسها في تصميمه، ويعطي نصائح حول السبل التي يجب أن تتبعها الأسرة كي تحصل على مسكن مناسب فيه بعض المجازفة، فالمسألة تحتاج إلى الحديث عن قضايا عامة أكثر من القضايا الخاصة، وهو ما سوف نقوم به في هذا المقال.

من الممكن أن نحقق المسكن المناسب للأسرة السعودية دون أن نتوسع كثيراً في مساحته.. ففكرة المسكن الكبير لم تعد مهمة بقدر جودة المسكن نفسه

المربع الأول

من أكثر القضايا التي تهم الأسرة السعودية في الوقت الراهن مسألة تأمين المسكن المناسب، والمشكلة هنا ليست في تأمين المسكن ولكن في كلمة "مناسب". فما هو المسكن المناسب للأسرة السعودية ؟ وهذا السؤال لا يمكن الإجابة عنه دون فهم عميق للأسرة ذاتها. فلو حاولنا أن نتعرف على شكل الأسرة السعودية المعاصرة سوف نجد أنها تختلف كثيراً عن ذي قبل. فلم يعد عدد أفراد الأسرة مؤثراً كما هو في السابق، والمقصود هنا هو أن فكرة المسكن الكبير لم تعد مهمة بقدر جودة المسكن نفسه. على أن هناك مشكلة أخرى هي تطلعات أفراد الأسرة إلى أن يكون لكل منهم المكان الخاص به وهذا يعيدنا إلى المربع الأول في لعبة المسكن المناسب. فمن وجهة نظري تظل مشكلة الحجم المناسب للمسكن هي المعضلة الأولى التي تستهلك كل مدخرات الأسرة. فإذا كان حجم الأسرة قد تقلص قليلا فإن تطلعاتها زادت كثيراً وهو ما يجعل فكرة المسكن وصورته الذهنية غير واضحة بما فيه الكفاية.

واجهات للأفراد

من خبرة طويلة في تصميم مساكن للأسرة السعودية تبين لي أن مساحة الفراغات، خصوصاً تلك الخاصة بالضيوف من الرجال تعتبر مهمة جداً ومقدمة على أي طلبات أخرى، وهو أمر يعرفه الجميع ولا تستطيع أية أسرة التنازل عنه، فالمجلس هو "واجهة الرجل"، على أن المشكلة هي أن المجلس أصبح كذلك "واجهة المرأة"، كما أن الصالة أصبحت "واجهة الأسرة"، وظهر مؤخراً ما نسميه الآن "غرفة معيشة"، فلم تعد فضاءات الطابق الأرضي لاستخدام الأسرة، بل صارت تحصر استمتاعها بالمسكن فقط في غرفة واحدة تقريباً. وهذا بالتأكيد يزيد من المشكلة ويعقدها، لأنه بالإضافة، إلى الحاجات الكثيرة التي تطلبها الأسرة في مسكن المستقبل فهي تحتاج إلى فراغات غير مستخدمة كثيراً وبمساحات كبيرة من أجل إرضاء المجتمع. ربما تكون هذه مسألة ثقافية بحتة وهو ما لا أنكره على المسكن السعودي المعاصر ولكن هناك أولويات يجب أن ترتب وتوضع في الحسبان وإلا سيكون المسكن مصدر هدر وضغط على مدخرات الأسرة وسوف يقلل من مقدرة الأسرة في الحصول على مسكن مناسب وربما يجعلها لا تحصل على مسكن مطلقا.

إذن يجب أن يُفَكر في المسألة على هذا المستوى، لأننا لو سألنا أنفسنا كم من الأسر تستطيع أن تحصل على مسكن يحقق الصورة الذهنية القائمة الآن فإننا لن نجد إلاَّ عدداً قليلاً من الأسر التي يمكنها بناء مسكن بالمواصفات نفسها التي تبنى عليها المساكن عندنا الآن. وأعتقد أنه يمكننا أن نحقق المسكن المناسب وظيفياً واجتماعياً وثقافياً للأسرة السعودية دون أن نتوسع كثيراً في مساحة المسكن. وهذا يمكن أن يحدث عندما يكون هناك تعامل واقعي مع الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي يعيشها وسيعيشها المجتمع السعودي في المستقبل. وأنا لا أقول أن على الأسرة أن تقبل بالأقل على العكس فما أتمناه أن ترى الأسرة في المسكن مكاناً للحياة، أن تراه كائناً حياً فهو يستمد هذه الحياة من حياة الأسرة نفسها، وأن بحثها وتقصيها لما هو المسكن المناسب لها يجب ألاَّ يذهب بها إلى مقارنات مع الآخرين مما قد يجعل من المسكن غير معبر عما ترغب الأسرة فيه بقدر ما يعبر عن أولئك التي تمت المقارنة معهم. هذه المشكلة من أحد أهم مصادر تشتت الأسرة عند تصميم المسكن، ويبدو أن تدخل الأصدقاء في تصميم المسكن موجود في كل الثقافات. إذ يتحدث

فرانك لويد رايت، المعماري الأمريكي المعروف، عن تجربته في تصميم المساكن، خصوصاً تلك التي صممها لبعض سيدات المجتمع الأمريكي في كاليفورنيا، فيشكو من تدخلات أصدقاء تلك السيدات وترددهن وحتى عدم ثقتهن، ويقول إنهن يثقن بالمقاول أكثر منه، مع أنهن أتين إليه لتحقيق أحلامهن في تصميم مسكن يعكس شخصيتهن. كان هذا الحديث في العشرينيات من القرن الماضي، ولم يتغير حتى الآن، وهذا يؤكد أن فكرة التدخل من قبل أصدقاء الأسرة أثناء التصميم مسألة ثقافية بحتة.

> السؤال الجدير بالنقاش هو: كيف يمكننا تحويل بيوتنا القائمة إلى مساكن؟

هذه الظاهرة ربما أصبحت منتشرة الآن عندنا بعد تزايد دور المرأة في تصميم المسكن، فمن المعروف أن اهتمام المرأة السعودية بالمسكن فرضته التحولات الكبرى التي طرأت على دورها في المجتمع المعاصر. فمن ناحية أصبحت المرأة أكثر خبرة من خلال التعليم والسفر إلى الخارج، ومن ناحية أخرى هناك استقلالها الاقتصادي الذي جعلها قادرة على اتخاذ قرارات في المسكن وتنفيذها دون الحاجة إلى رأي الرجل. وإذا ما وضعنا في اعتبارنا أن المرأة غالباً ما تهتم بحياة الأسرة والخصوصية، والسلوك الاجتماعي وتربية الأطفال، نرى كيف أصبح تصميم المسكن يستجيب بعمق لهذه العوامل الأربعة، فلم يعد المسكن مجرد مأوى بل هو فضاء للتفاعل مع الحياة. أنا هنا أشجع المرأة أن ترى في المسكن ظاهرة أنثوية، والذي أستطيع أن أقوله في هذا المجال هو أنه يجب على المرأة أن تطبع المسكن بطابعها، وهذا لا يمكن أن يتحقق فقط بالمشاركة في التصميم وتقليد الآخرين، بل يجب البحث في الذات وتحديد ما ترغب فيه الأسرة، وكيف ستتحقق هذه الرغبة أثناء تصميم المسكن وبعد تنفيذه وبعد مرور سنوات على سكناه.

ينتهي البناء.. يبدأ التغيير

وهذا يجعلنا نضيف البعد الرابع وهو الزمن في مسألة تصميم المسكن، فنحن نبني في الحاضر من أجل المستقبل، فهناك فاصل زمني بين التصميم والسكن ربما تحدث فيه متغيرات كثيرة. كما أن هناك من يقول إنه عندما ينتهي بناء المسكن يبدأ التغيير. يقودنا هذا إلى قضية أخرى هي المرونة التي يجب أن يكون عليها المسكن.

فمن الطبيعي أن يتغير احتياج الأسرة ومن الطبيعي أن يواكب هذا التغيير تعديل على المسكن، لكن الأمر مغفل تماماً في تصميم المسكن السعودي نتيجة عدم الخبرة وعدم التفكير في المستقبل. لذلك فإن ما يجب أن تفكر فيه الأسرة هو وضع "سيناريوهات" محتملة لما يمكن أن يحدث للأسرة من تحولات وكيف يمكن للتصميم أن يحترم هذه التحولات المستقبلية. وعلى أية حال يجب أن نتذكر مرة أخرى أن المسكن كائن حي ينمو ويكبر وربما يشيخ. "إنه استجابة لحياة الأسرة"، وهذا ليس له دخل في حجم المسكن أبداً. وما أود أن أقوله هنا هو أن المساكن الصغيرة أكثر ديمومة وأكثر حميمية فهي تجمع أفراد الأسرة وتقربهم مع بعضهم البعض، كما أنها اقتصادية ويمكن تغيير تصميمها بأقل تكلفة ممكنة، وهذا عكس المساكن الكبيرة التي لا تستجيب لتحولات الأسرة (فهي كبيرة ولا يمكن تصغيرها ولا تحتاج أن تكبر أكثر) فهي مساكن تفتقر للحياة كما أنها عادة ما تكون عالة على الأسرة.

كما أنني أرى أن المصمم والمعماري عليه مسؤولية كبيرة. فالمتوقع منه أن يقدم النصح والتوجيه، فالواقع يقول إن الأسرة السعودية تحتاج إلى الكثير من التفاعل مع المسكن أثناء التصميم، وهذا ما لمسته بنفسي عندما تحدثت مع الكثير حول مساكنهم بعد الإنشاء. فالسائد هو الكثير من المفاجآت وعدم الرضا. البعض أكد أنه لم يكن يعلم أن المسكن سوف يكون بهذا الشكل، أو أنه لو تأنّى قليلاً لكان مسكنه أكثر ملاءمة لاحتياجه. ومع أن ظاهرة عدم الرضا طبيعية نتيجة لتغير خبرة الإنسان ورغباته مع تقدم الوقت، إلا أن التفاعل مع المصمم له دور كبير في تقليل المشاكل التي يمكن أن تنتج في المستقبل. وهنا قد تحتاج الأسرة للتروي سواء عند اختيارها للمصمم أو عند البحث معه في مسألة برنامج التصميم.

فكرة «المسكن»

كنت أفكر كيف يمكن أن يكون المسكن حياً، وهل يكفي أن يكون الحجم هو المعيار للحياة؟ وهل تعكس المرونة التفاعل الذي يصنع الحياة في المسكن؟ إن هذين العنصرين مهمان لحياة المسكن، ولكن

هناك الكثير الذي يمكن أن نتحدث عنه حتى تتحقق فكرة الحياة التي نتمناها في مساكننا. أحد الأسئلة التي كنت أسألها نفسي كيف يمكن أن نصنع فكرة "المسكن" التي تتجاوز مسألة "البيت". الفرق واضح بين البيت والمسكن، والحقيقة أن البيت لا يصبح مسكناً إلا بعد أن تنتقل الأسرة إليه وتبني علاقة معه. هذه العلاقة بين الأسرة والمكان الذي تعيش فيه تحتاج إلى إعداد مبكر يبدأ من ترتيب الأولويات إلى مشاركة كل أفراد الأسرة في التصميم إلى البحث عن العناصر التي يمكن أن تجمع أفراد الأسرة وتقربهم من بعضهم البعض وأخيراً إلى أسلوب حياة الأسرة التي تجعل كل ركن في المسكن مكاناً لبعث الذاكرة الجماعية لأفراد الأسرة. لا أتوقع أن ينفصل تصميم المسكن عن كل هذا ولا أعتقد أن كل المساكن القائمة لا تحتاج لمثل هذا التفاعل بين الإنسان والمكان داخل المسكن. ربما كان السؤال الجدير بالنقاش هو كيف يمكن أن نحول بيوتنا القائمة إلى مساكن؟ وأنا أرى أنه ليست هناك إجابة واحدة عن هذا السؤال بل هناك آلاف الإجابات. فكل أسرة عندها إجابة مختلفة وربما تحتاج أن تبحث بعض الشيء عما يمكن أن يخلق العامل المشترك بين أفرادها، عما يجعل المسكن مكان لقاء ومكان بناء الذاكرة الجماعية للأسرة. هذا التنوع هو ما يجعل كل مسكن في حد ذاته مشكلة خاصة.

> يفترض بالمرأة أن تطبع المسكن بطابعها وهذا لا يتحقق فقط بالمشاركة في التصميم وتقليد الآخرين، بل بتحديد ما ترغب فيه الأسرة

ومن أجل تسهيل الأمر على القارئ، حاولت أن أطوّر بعض المبادئ التي قد تساعده أثناء تصميم مسكن المستقبل. كل مبدأ من هذه المبادئ يتكون من كلمتين متقابلتين بينهما علاقة وثيقة ومؤثرة في تصميم المسكن، كما أن ما بين هاتين الكلمتين تناقض ظاهري، في حقيقة الأمر فإن تناقضهما يثير عدداً كبيراً من الأسئلة التي قد تكون مفيدة جداً.

العام/الخاص

إنه مبدأ يثير مسألة اختيار موقع المسكن بالدرجة الأولى، فالجار قبل الدار، وقد كنت قبل فترة أقرأ في إحدى الصحف البريطانية عن تأثير الرمز البريدي على قيمة العقار بشكل عام، والمقصود هنا هو الموقع. كما أننا جميعاً نعرف ما للموقع من تأثير في الصورة الذهنية لمكانة الأسرة. على أية حال فإن اختيار الموقع المناسب مهم ويجب أن يعتبر أحد أهم الأولويات. كما أن هذا المبدأ يثير كذلك مسألة "الداخل والخارج"، وهي قضية ثقافية طالما أثرت على شكل المسكن وعلى تواصل الأسرة مع المحيط الخارجي. يندرج في ذلك مواقع المجالس وشكل المسكن من الخارج وبوابة وسور المسكن والحديقة الخارجية. مبدأ العام والخاص يمكن أن يتدخل حتى في توزيع الفراغات الداخلية للمسكن فهناك دائماً تدرج في الفراغات من العام إلى الخاص وبالعكس. والذي نأمله من الأسرة هو أن تمارس تجربة ذهنية وأن تقوم بترتيب فراغات المسكن على هذا الأساس، فنحن على يقين أن فكرة العام والخاص تختلف عند كل منا فهي مسألة مرتبطة بأسلوب الحياة التي تجعلنا نفسر القيم بأشكال مختلفة ولكنها جميعاً تفسيرات صحيحة.

التقنية/المطلب الاجتماعي

ربما نكون قد تحدثنا عن هذا المبدأ بعض الشيء، ولكنه بالتأكيد أحد الركائز المهمة التي يغفل عنها كثير من الناس أثناء تصميم مساكنهم. فالمطلب الاجتماعي للأسرة متغير، فهي تكبر وتصغر وتتغير اهتمامات أفرادها وتزداد خبراتهم الجمالية. كما أن التقنية في تطور مستمر فهناك أجهزة جديدة، وهناك مواد جديدة كلها تؤثر في شكل المسكن بعد البناء. وما لم يكن هناك تصور لماهية التغيرات المحتملة، فما يحصل غالباً إما أن يرضى الساكن بما خرج به وإما أن يغير في المسكن بتكاليف باهظة وإما أن يغيره بالكامل، وكلها حلول يمكن تجاوزها إذا وضعت الأسرة سيناريوهات للتغيرات المحتملة وإذا استثمرت التطورات التقنية الكبيرة من خلال تبني نظم إنشائية مرنة، بالإضافة إلى العمل مع المصمم للوصول إلى تصميم فراغي مرن يسمح بالتغيير.

الخصوصية/الحميمية

ربما يوافقني بعض القراء على تبني هذا المبدأ كأحد المبادئ المؤثرة في تصميم المسكن، مع أني أراه مهماً وعاطفياً. فغالباً ما تستحوذ الخصوصية على جل اهتمامنا، حتى في فراغاتنا الخاصة داخل المسكن، مع أننا نعتبر المسكن المكان الوحيد لالتقاء أفراد الأسرة. يحدثني البعض عن مساكنهم

بأنها لا تتيح له فرصة رؤية أبنائه مع أنه راعي البيت "وكل راع مسؤول عن رعيته". فكيف نستطيع إتاحة أكبر قدر من الحميمية داخل المسكن مع المحافظة على الخصوصية. ربما يكون الأمر فرصة أخرى للأسرة لممارسة لعبة ذهنية يحاول كل فرد فيها ممارسة دوره، يتخيله ويضع تصوراً للكيفية التي يمكن أن يلتقي فيها مع الأدوار الأخرى لأفراد أسرته. والذي أعتقده أنها ممارسة ممتعة لأفراد الأسرة أثناء التصميم وستكون أكثر متعة بعد الانتقال إلى المسكن الجديد.

الاستخدام/الصيانة

ربما يكون هذا آخر المبادئ التي أنصح القارئ الاهتمام بها أثناء تصميم المسكن، فمسألة أن يكون المسكن عملياً وصيانته سهلة وغير معقدة مسألة مهمة. هناك الكثير من القضايا التي يمكن التفكير فيها في هذا المجال تبدأ من تبني النظام الإنشائي المرن إلى النظم الميكانيكية والكهربائية البسيطة إلى استخدام مواد جيدة حتى وإن كانت مكلفة.

2 ناقش الصغيرة قبل الكبيرة

جهاد قطّان

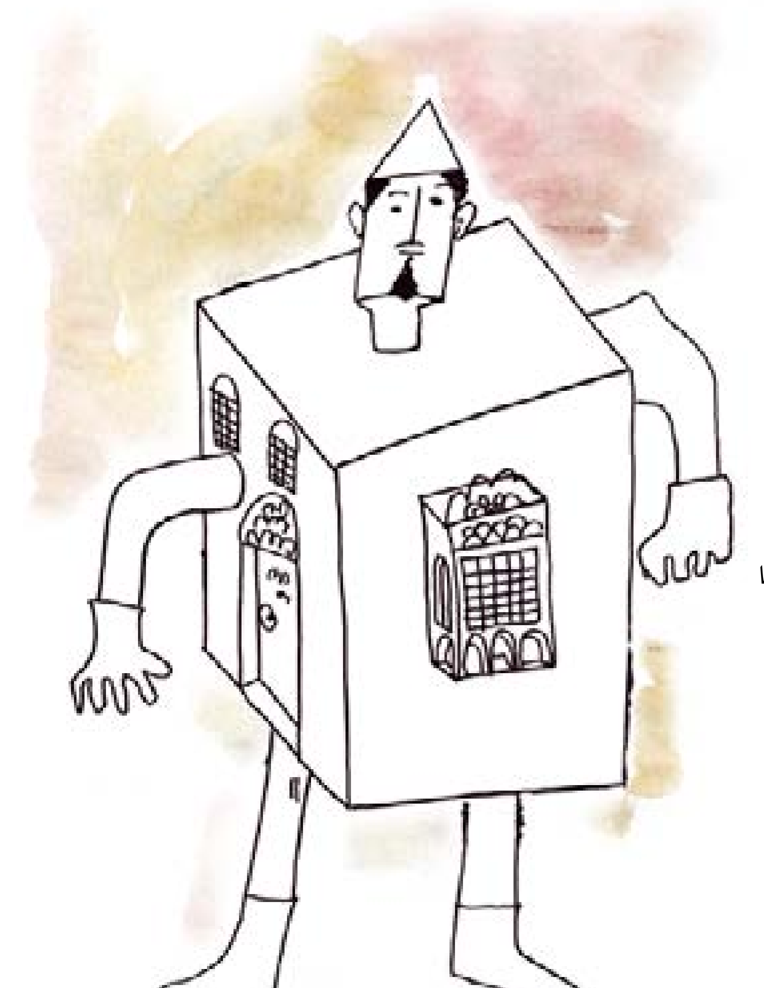
ما تحتاجه، قبل البدء، هو أخذ الوقت الكافي للتخطيط، فالتسرع قد يؤدي إلى قرارات تؤسس ثغرات في بناء بيتك ويصعب علاجها فيما بعد.

هيّئ نفسك جيداً، وتخيل شكل البيت الذي يلائمك وتتمناه لنفسك ولعائلتك، اطلع على المجلات المتخصصة المتوافرة في الأسواق، حاور أفراد عائلتك والمقربين إليك وناقشهم فيما يصح وما لا يصح.

الاطلاع والمناقشة يهيئانك جيداً وقد يعدّلان في قناعاتك الأولية نحو الأفضل. وبعد تكوين التصور الواضح للبيت الذي تريد، ابدأ العمل مع المهندس المصمم. ولا تكتف بذلك؛ بل اطلب من المصمم أن يعرض عليك أكثر من اقتراح، واستعن بالتصور الذي شكلته لمناقشته ومراجعة اقتراحاته. ناقشه في التفاصيل الصغيرة قبل الكبيرة، ولا تكن متفرجاً صامتاً..!

إذا انزعج المصمم من كثرة تدخلك فإن انزعاجه أهون من أن تبقى أنت - وأسرتك - منزعجين طيلة حياتكم..!

اطلب نماذج مصغرة للبيت من الخارج والداخل، ولو كلفك هذا مبلغاً إضافياً. فالنموذج المصغر يمنحك مزيداً من وضوح الرؤية، وقدرة أكبر على دراسة التفاصيل بعناية.



من أهم المسائل التي عليك دراستها في هذه المرحلة مسألة مساحة البيت التي يجب أن تتناسب مع أمور كثيرة من بينها: قدراتك المالية، والاحتياجات السكنية الحالية والمستقبلية، وطريقة الحياة والحركة داخل البيت، بما في ذلك الفراغات الصغيرة التي يمكن أن توظف في احتياجات مختلفة وعملية كأن تكون خزائن جدارية أو ما شابه ذلك.

> **أول بيت تبنيه إكريه، والثاني بيعه، والثالث إسكن فيه**
> (مثل شائع)

أيضاً هناك التهوية والإضاءة خاصة حين يكون البيت كبيراً ويتضمن ممرات داخلية كثيرة، أو إذا كان محاطاً بأبنية عالية تحجب أشعة الشمس.

بعد اهتمامك بالتصميم عليك الاهتمام بنوعية مواد البناء التي يجب أن تكون ملائمة للبيئة المؤثرة في المبنى على المدى الطويل. إنها أمور يجب بحثها في العمق مع المهندس. أما الألوان الداخلية المهمة جداً في حياتك اليومية فعليك باختيار ما ترتاح إليه منها، ولا تترك أمرها للمهندس.

وهناك إجراءات السلامة التي يجب التفكير فيها جيداً. خاصة إذا كان البيت يتألف من طابقين أو أكثر فيستوجب الأمر عندها توافر سلالم حريق مثلاً. كما أن وجود حديقة تحيط بالبيت يعني أن بعض مستلزماتها يدخل في أساس تصميم المشروع مثل نظام الري وما يستدعيه من إنشاء شبكة ري.

كل هذه المتطلبات تقف أمامها الميزانية: تكلفة الإنشاء ومواد البناء. وهذه يجب أن تحددها بأكبر قدر من الدقة، بعد أن تكون قد أشبعت كل التفاصيل درساً. لأن ترك أية تفاصيل من دون اتخاذ قرار في شأنها، يؤدي لاحقاً إلى رفع تكلفة البناء، وغالباً إلى مستويات غير متوقعة، مما يسبب لك مفاجآت مزعجة ومتعبة..!

بعد التأكد من صواب قراراتك، تبدأ رحلة البناء. وقد لا تكون مطلعاً بما يكفي على المسائل الهندسية، فتجد نفسك متفرجاً طوال فترة البناء. لكن لا تغب عن ورشة العمل لمدة طويلة.

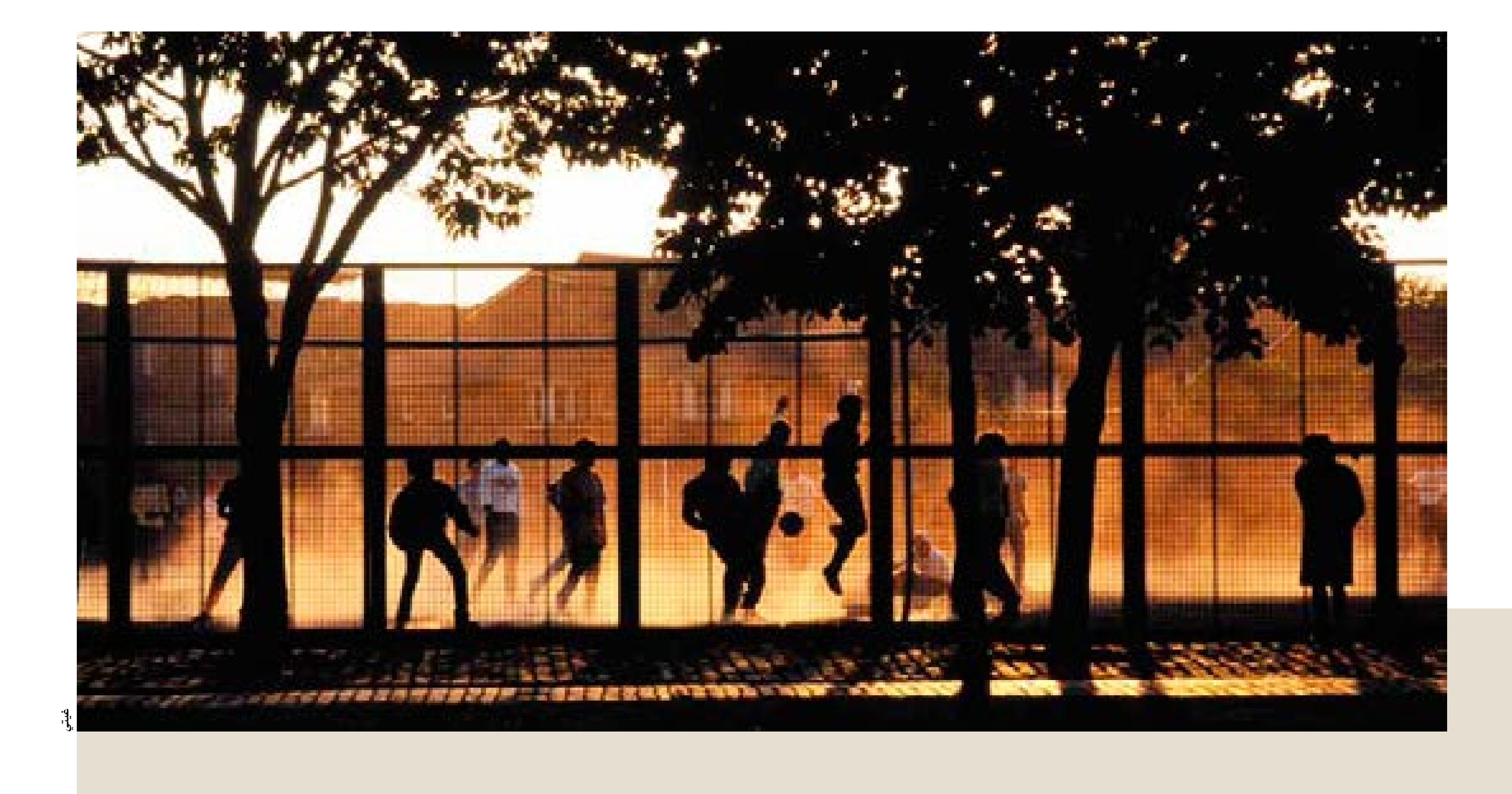
إسأل واستفسر دائماً، دع المهندس يشعر بوجودك خاصة عند القيام بأعمال البنية التحتية للبيت، مثل تمديد المواسير وأسلاك الكهرباء، لتتأكد من أن ما يتم استعماله داخل جدران منزلك وتحت أرضه لن يكون إلا الأفضل للمستقبل.

وتأتي مهمتك الصعبة عندما يبدأ التشطيب الداخلي. عندها يجب عليك الحضور إلى الورشة يومياً ومراقبة سير العمل.

ولعل أفضل وسيلة لتلافي المنغصات التي قد تفسد عليك هناء العيش في البيت الجديد، تكمن في أن تأخذ ورقة وقلماً، وتجول في بيتك القديم لتضع لائحة مفصلة بكل التفاصيل الصغيرة التي لا تعجبك فيه، وتلك التي تجدها مريحة. ومنها على سبيل المثال: مفاتيح الكهرباء ومواقعها وارتفاعها عن الأرض، تشطيبات الأبواب، تنظيم الرفوف في الخزائن الجدارية، أماكن توزيع قطع المطبخ، وصولاً في الدقة إلى موضع الصابون بالقرب من المغسلة، ودرجة انحناء المغسلة التي يجب أن تكون إلى الأمام كي لا تتجمع المياه فوقها.. لا تتوقف عند التأكد من أن البلاط الذي يتم تركيبه - مثلاً - هو نفسه الذي طلبته، بل تأكد من سلامة تركيبه قطعة قطعة، ومما إذا كانت هناك بلاطة مكسورة في تلك الزاوية، أو خلف ذاك الباب.

لا تتغاضَ عن أي من هذه التفاصيل، ولا تدع أحداً يطمئنك إلى أن هذه أمور صغيرة سوف يتم إصلاحها لاحقاً. كل صغيرة وكبيرة يجب أن تكون كما تريدها أنت. لا تيأس ولا تمل، الملل والتغاضي يؤديان إلى بقاء الأخطاء أمام ناظريك ما بقي البيت قائماً.

ما الذي يرتسم في أذهاننا عند الحديث عن الرياضة المدرسية؟ الملاعب الخضر التي يتعلم فيها الناشئة أصول التنافس النظيف؟ تربيت الوالدين والمدرسين على الأكتاف، ما يحفز على استكمال التفوق الرياضي بالإنجاز الأكاديمي؟
الدكتور أحمد مغربي* يجيب هنا عن هذه الأسئلة فيركز أولاً على ما آلت إليه الرياضة المدرسية في الغرب ويفاجئنا بوجود وجه مظلم لها. ويلحق مقالته بضوء مركز على واقع الرياضة المدرسية العربية.



مفارقات المراهقة في الرياضة المدرسية

1 في الغرب: المراهقون يستخدمونها لتعزيز ذواتهم

منذ ستينيات القرن الماضي، لاحظ علماء النفس والتربية في الغرب ظاهرة "ثقافة المراهقة" باعتبارها بديلاً، وأحياناً نقيضاً، للثقافة السائدة اجتماعياً. وناقش الأميركي يان كولمان (1961م) الأمر من باب أن المراهقة باتت تشكل "ثقافة بديلة" في المجتمع الحديث. وأرجع ذلك إلى تزايد أثر الحداثة والتصنيع في المجتمعات، مع ما يرافق ذلك من تزايد في الانفصال بين الأكبر سناً والأصغر، وتضاؤل فرص نقل القيم بين الأجيال، بالمقارنة مع المجتمعات الزراعية التي يتداخل فيها الآباء والأبناء في العمل كما في الأماكن العامة والمنزل وما إلى ذلك. وأثبتت مجموعة من الدراسات الاجتماعية لاحقاً مقولة ثقافة المراهقة، وتعتبر الرياضة المدرسية محكاً مهماً لظهور هذا التناقض. فقد دلّت دراسة عالم الاجتماع الأميركي جيروم فورناس (1995م) أن الأهل يفترضون أن الأولوية في النظام المدرسي هي للأداء الأكاديمي والتفوق العلمي. وفي المقابل فإن المراهقين يعطون الأولوية للأداء العالي في الرياضة المدرسية، وبدرجة أقل للعلاقات الاجتماعية، على حساب مكانة التفوق الأكاديمي. والمفارقة أن تقدم المراهقات في الرياضة المدرسية ترافق مع انتقال في التفكير لديهن. واحتلت صورة المراهقة المتفوقة في الرياضة المدرسية مكاناً متقدماً على حساب مكانة التفوق الأكاديمي، أي أن شيئاً ما من النظرة الذكورية إلى الرياضة المدرسية تسرب إلى الإناث.

وهنا لا بد من التمهل قليلاً. الأرجح أن التطرف في عداء الرياضة المدرسية أمر يفتقد إلى الموضوعية تماماً. صحيح أن الجسد بات موضوعاً مركزياً في ثقافة المراهقين، لكن رياضة المدرسة لها جوانب إيجابية تماماً. ودلت الأبحاث المدققة لعالم النفس البريطاني هيربرت مارش (1992م)، الذي تخصص في أبحاث التعليم، أن الطلبة الذين يشاركون في فعاليات اجتماعية متعددة في المدرسة، يتفوقون في الرياضة وفي الأداء الأكاديمي في الوقت نفسه. ولعل الدراسة الأشد تشاؤماً في أثر الرياضة المدرسية هي تلك التي أجراها الأميركي أليبس هولاند، بروفسور في جامعة أيوا، متخصص في أبحاث المراهقة.

وجزمت هذه الدراسة بأن التلاميذ المتفوقين في الرياضة هم ذكوريون، ومتفاخرون برجولتهم، وتقليديون في التعامل مع الإناث إلى حد احتقار المرأة، ولا يشاركون في النشاطات الاجتماعية الأخرى في المدرسة. وهذه الفئة، للأسف، ضعيفة في الأداء الأكاديمي. وهنا تكاد الأمور تصل إلى حد رسم "نموذج" سلبي عن أثر الرياضة المدرسية، ليس ببعيد عما يدور من نقاشات معروفة في بيوت عربية كثيرة عندما تلاحظ العائلة ميلاً قوياً لأحد ذكورها نحو الرياضة على حساب الدراسة.

وفي المقابل فإن الفئة اللامعة هي تلك التي تشارك في نشاطات اجتماعية عديدة في المدرسة، وتمارس الرياضة ضمن المعدل العادي أو أقل قليلاً. مرة أخرى، تبدو الأمور قريبة إلى بداهة عامة لا يصعب على أية أسرة عربية إدراكها.

والمفارقة أن هذه الدراسة هي الأحدث، وقد نشرت في أوائل العام 2000م في مجلة "المراهقة". إنه

* اختصاصي في طب النفس الاجتماعي

افتتاح متشائم للقرن الحادي والعشرين على ذكور أكثر فتنة بالعضلات وأكثر انسياقاً مع هرموناتهم الذكورية، ولا يتدخل العقل لديهم للجم هذا الشطط إلا قليلاً ... قليلاً!

وقبل القنوط، يجدر تذكُّر الدراسة التي قام بها الاختصاصيان في علم النفس الاجتماعي البريطانيان إليوت سايندر وإلياس سبربيتزر (1992م). وقد التقطت هذه الدراسة الحساسة الأبعاد النفسية المرتبطة بالمراهقة. واستطاعت أن ترسم صورة انسجمت فيها الكثير من الأشياء التي تبدو متناقضة ظاهرياً. فالموضوع المركزي للمراهق هو تقييم الذات Self-Esteem. وقد تَبَيَّن لهذين العالمين أن الفئة المبدعة أكاديمياً هي تلك التي تمتعت بأعلى قدر من الرضا عن الذات. ويبدو الأمر في هذه الحالة منطقياً تماماً: يسعى المراهق أساساً إلى تأكيد ذاته وتتدخل عوامل عديدة في تحديد "المكان" الذي يمنحه هذا الاكتفاء.

يمكن أن تُشَكِّل الرياضة أداة إضافية في يد الطالب لتعزيز صورة ذاته، وفي المقابل، فإن الاستغراق في هذه "اللعبة" للحصول على الرضا النفسي هو خطر تماما

من هنا فإن الرياضة المدرسية توفر فرصة للبروز ولرفع تقييم الذات. في هذه الحال، يتساوى الإنجاز الرياضي في المعطى النفسي مع الإنجاز الأكاديمي. هنا منعطف خطر إذ يمكن أن تُشَكِّل الرياضة أداة إضافية في يد الطالب لتعزيز صورة ذاته، وفي المقابل، فإن الاستغراق في هذه "اللعبة" للحصول على الرضا النفسي هو خطر تماماً. فعندما تتحول الرياضة لتكون الوسيلة الوحيدة التي يحصل من خلالها المراهق على ما يعزز ذاته فإنه يقع في "فخ" التركيز الفائض على الرياضة من أجل الحصول على الرضا النفسي والإحساس بالتساوي مع أولئك المتفوقين في التحصيل العلمي. إنه اختلال المعادلة، وهناك عوامل كثيرة تلعب دورها في استدراج المراهق إلى هذه النقطة الخطرة. لا ريب في أن ثقافة المظهر، أو الـ "لوك" Look السائدة تعزز مظهر الجسد الرياضي وتعطيه أولوية قصوى. ومن يتابع الإعلانات التلفزيونية، يجد وفرة غير طبيعية في وجوه الرياضيين باعتبارهم نموذجاً. وفي كرة القدم بالذات، يبدو الأمر واضحاً. كم مرة ترى رونالدو، وروبرتو كارلوس، وريفالدو، وزين الدين زيدان، وبيكهام وغيرهم على الشاشات؟ إن وجودهم يثير ضجة تضرب دماغ المراهق ضرباً قوياً.

ويجدر بالأهل والمدرسة التنبه إلى دورهم الشديد الحساسية. إن مراهقاً يتعرض للضرب في المنزل، مع ما يرافق ذلك من أحاسيس بالمهانة وانحطاط قيمة الذات، يصبح مرشحاً للاندفاع الأعمى نحو الرياضة للتعويض عن مهانة البيت، وهذا مجرد مثال صغير. على المدرسة البحث عن نقطة التوازن بين رغبتها في البروز في الرياضة المدرسية، وما يرافق ذلك من تكريم قوي لإنجازات المتفوقين، وبين التنبه إلى تكامل الرياضة مع مجمل النظام المدرسي، أي إعطاء وزن موازٍ للمبرزين في الأنشطة الاجتماعية في المدرسة، إضافة إلى الإنجاز الأكاديمي. لا بد من شفافية ووضوح بين أطراف هذا المثلث: البيت والمدرسة والمراهق. الأرجح أن الأمر يتعلق بثقافة المجتمعات العربية في هذا المحك الصعب.

المنشطات المبكرة و الجينات المرعبة

من المريح أن تميل الدراسات عن الرياضة المدرسية إلى رصد أثرها الإيجابي أمام مشكلة تعاطي مواد التعوُّد. وتتقاطع دراسة أجراها الطبيب النفسي البريطاني ريتشارد شيبرد (2000م) مع تلك التي أجراها الأميركي آدم نايلور، من جامعة بوسطن (2001م) والتي تشير إلى أن الرياضة المدرسية تسهم في دفع أجيال الشباب المعاصر نحو نمط حياة أكثر صحة في الوقت الذي تنخفض فيه نسب تعاطي مواد الكيف بينهم عن أقرانهم. ودققت الدراستان كلتاهما في مسألة تعاطي المنشطات، كالامفيتامين، وكذلك المواد التي تزيد من ضخامة العضلات، مثل الستيرويد. والحال أن الرياضة عموماً تعيش حالة من انتشار "وباء" تعاطي هذه المواد، لكن لم يلحظ أي وضع خاص للرياضة المدرسية في هذا المجال. والأرجح أنها تتساوى مع سواها في هذا المجال، ما يوجب وجود انتباه خاص من الأهل. ومن المفيد أن تمارس ضغوط اجتماعية على المدارس بهدف عدم المبالغة في أهمية الفوز في المسابقات على حساب مستقبل

الأجساد الرياضية الشابة. والحال أن مقالاً موسعاً عن العلاقة المعقدة بين الرياضة وسوء استعمال المواد والميل إلى السلوك الخطر سبق أن نشر في عدد سابق من القافلة.

الرياضي الذي يبرز في سن مبكرة ربما كان هو الشخص الذي يحمل في تركيبته الجينية الوراثية ما يؤهله لمثل هذا البروز

لكن المستقبل يحمل احتمالاً لا يقل خطورة، وهو الأثر المحتمل للتقدم في علوم الجينات على الرياضة المدرسية. ويحتاج هذا الأمر إلى نقاش مستقل. وفي قول موجز، يمكن القول أن كثيراً من جهود العلماء تنصب على محاولة اكتشاف العناصر الوراثية المرتبطة بارتفاع الأداء الرياضي. وتوصلت الأبحاث إلى تحديد بعض الجينات التي تتحكم بعمل بروتين العضلات وتؤثر في عملها وتغذيتها الدموية وما إلى ذلك. وما يهم في المقال الحالي، هو أن الكثير من هذه الأبحاث تُركز على الرياضة المدرسية تحديداً. فالرياضي الذي يبرز في سن مبكرة ربما كان هو الشخص الذي يحمل في تركيبته الجينية الوراثية ما يؤهله لمثل هذا البروز! ولنا أن نذكر مثلاً العدَّاء الكندي هانك بالمر، وهو من أصول إفريقية، الذي خضع لأبحاث مكثفة من قبل علماء الجينات نظراً لتفوقه في سباقات الجري في مسابقات عالمية للرياضة المدرسية أجريت في مدينة "كان" الفرنسية العام الماضي. وتعطي الفرنسية أنا غدونيك مثالاً أشد نفوراً. لقد أخضعت هي لتجارب قاسية بعد أن فازت أختها التوأم في إحدى مباريات الجري للمسافات الطويلة. واستطاعت هذه الفرنسية التي لا تتجاوز 14 عاماً أن تسجل ضعفي رقم التحمل لأي رياضي في التاريخ. وأُرغمت لاحقاً على المشاركة في مسابقة للركض شارك فيها رياضيات يفقنها سناً". ليس لأية غاية سوى اختبار القدرة القصوى لجيناتها، وليست هذه الصورة سوى مجرد بداية.



كوربيس

اللغة البذيئة و العنف

لعل شيئاً لا يثير الأسى عن الرياضة المدرسية أكثر من إجماع الدراسات على أنها مدخل لتَعَلُّم لغة ذكورية بذيئة وتَعَلُّم الاستفزاز والعنف. والحال أن علم النفس ينظر إلى هذه الأمور باعتبارها أشكالاً من العنف، أي من العنف اللفظي بالشتائم والاستفزاز الكلامي، وصولاً إلى الأذى الجسدي المباشر. وفي دراسة واسعة أجراها إدغار شيلدز، الاختصاصي في علم النفس الاجتماعي من جامعة نورث كارولينا، ونشرت في العام 1999م، تبَيَّن أن المدربين الذين يتولون شؤون الناشئة في الرياضة المدرسية هم المصدر الأساس لتعويد الطلبة على استخدام الألفاظ البذيئة. ويحرض هؤلاء المدربون صغار اللاعبين على استخدام الاستفزاز الكلامي، بما في ذلك الشتائم، كطريقة للتأثير على أعصاب الخصم، وزيادة فرص الفوز. بالإضافة إلى ذلك، فإن العنف الجسدي المباشر هو من الأساليب المتبعة في الملاعب تجاه الخصم. وتوجيه العنف إلى لاعب أو أكثر أثناء اللعب هو من الأساليب الشائعة أيضاً التي "يُدرّسها" المدربون للشباب. وغاية القول هي أن "التنافس" كوسيلة لتعليم المراهق أصول حل الصراعات الفردية في المجتمع، وكذلك لإظهار الذات وتوكيدها، هي بعيدة عن الأجواء المحمومة بالتنافس الحاد الذي يتصاعد تدريجياً في أوساط ممارسي الرياضة المدرسية. ولكن إلى أي مدى يمكن القول إن هذه الرياضة باتت من مسببات ظواهر العنف في أجيال المراهقين، مثل ظهور "الشّلل" العنيفة في أوساط المدارس والثانويات؟

تنصح دراسة لشيلدز أن يتدخل الأهل بكثافة في الرياضة المدرسية من أجل رسم خطوط الفصل بين "اللعب النظيف" والعنف، وكذلك لتقليص ظواهر استخدام اللغة البذيئة وتدريب الناشئة على الاستفزاز بأنواعه كافة. هنا سيف يسهل أن يرتد على الأهل أنفسهم، وربما على المجتمع الأوسع، إضافة إلى أثره المدمر في المراهق نفسه. إن أولادهم على المحك، والتغاضي عن الوقائع لا يجدي نفعاً".

2 في الشرق: عَدْوٌ إلى الوراء!

عالم عربي فقير في الرياضة المدرسية التي يفترض أنها تربي أجساد شباب الغد، كأنه خارج ما يعيشه العالم من اهتمام متصاعد في هذا النوع من الرياضة. تعيش مدارس العرب حالة مأساوية تغيب فيها الملاعب والأدوات والخطط والتوجيه. الأسوأ أنها حالة متراجعة، أي أن أزمنة غير بعيدة كانت أفضل بكثير من الوضع الراهن. وبدل السير قدماً، تكلست الأمور أو سارت إلى الوراء، وفي أحسن الأحوال ساد التخبط.

ما سبق هو وصف جاء على لسان أكثر من خبير متابع لحال الرياضة المدرسية عربياً.

وفي البداية، ثمة مسألة لابد من استعادتها: الرياضة المدرسية هي، في المفهوم العصري للمدرسة، الأساس الذي ترتكز إليه الرياضة كلها. يفترض أنها القاعدة التي تمد الألعاب باللاعبين بشكل مبكر بحيث يمكن للجهد التدريبي أن يحولهم إلى أبطال. تمثل المدارس الأمكنة التي تكتشف فيها المواهب المبكرة، وباحة المدرسة هي الساحة التي يلاقي فيها الجسد الغض الرياضة وقواعدها وتكتيكاتها وأساليبها وإنجازاتها... إلخ. الحال الراهن بعيد عن هذه الصورة.

في أغلب البلدان العربية، تعاني المدارس الرسمية من الاكتظاظ الذي أكل وقت الرياضة. ويطبق الكثير منها نظاماً دورياً في حضور التلاميذ وهو ما جعل الوقت المخصص للرياضة... صفراً. ومع هذا التراجع، غطى الغبار الأدوات في المخازن، إذا كانت موجودة أصلاً. ولجأ الكثير من المدارس إلى تحويل الباحات صفوفاً إضافية. اختفى زمن الرياضة وجغرافيتها. وانعكس الأمر على الرياضة العربية كلها. يعرف الخبراء أن الإنجازات الرياضية مرتبطة بوجود قاعدة لاعبين.

في خمسينيات وستينيات القرن العشرين، كانت الرياضة المدرسية في صعود، وترافق ذلك مع أداء عالٍ للرياضة، مع نجاحات دولية معقولة على الرغم من محدوديتها. وسواء في دول الخليج أو في مصر أو سوريا أو لبنان أوغيرها، فإن تلك الحقبة عرفت نهوضاً في دورات المدارس إقليمياً وعربياً. كان ذلك زمن "الهواية"، إذا جاز التعبير. وكانت أخلاق الملاعب معقولة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى أخلاقيات الألعاب على مستوى الناشئة.

ولعل الدورة العربية المدرسية التي أقيمت في المدينة الرياضية في بيروت عام 1973م، كانت الذروة والختام. ولم تستطع أية دورة عربية أن تعيد وهج تلك الدورة التي شهد افتتاحها 310 آلاف شخص، وشملت مسابقاتها الألعاب كلها. ولكنه حال لم يدم. ومنذ مطالع السبعينيات، انهار نظام الرياضة المدرسية، خصوصاً في المدارس الرسمية. وتابعت مدارس القطاع الخاص، في أغلب الأحيان، اهتمامها بالرياضة، لكنه اهتمام يغلب عليه طابع التوظيف المالي. وما يعيبه عملياً هو موسميته وغياب التنسيق بين كل مدرسة وأخرى، وعدم الاستمرارية، وغياب الخطة المتكاملة التي تستمر سنة تلو الأخرى. وبالطبع، فإن الاستمرارية هي من شأن جهات غير المدرسة بحد ذاتها، كما هو الحال في معظم البلدان المتقدمة. ففي فرنسا ثمة مركز للتأهيل والأبحاث الرياضية يعمل على مستوى كل محافظة، ثم على مستوى البلد كله.



ويمكن اعتبار عقود السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات أزمنة التخبط والتكلس للرياضة المدرسية العربية. فعلى سبيل المثال، أنشأت مصر مدرسة الموهوبين الرياضيين في أواسط السبعينيات، لكنها لم تدم سوى أربع سنوات. ولم تستطع الدول العربية دعم مفهوم الأكاديمية الرياضية سوى لفترة وجيزة. وتعاظم تدخل العنصر السياسي، الذي تكفل "بإفساد كل شيء" بحسب قول مأثور عند العرب. وتأسس "الاتحاد العربي للرياضات المدرسية العربية"، التابع لجامعة الدول العربية، والذي يتألف من وزراء الشباب والرياضة. ولم يستطع هذا الاتحاد تفعيل الرياضة المدرسية لتخدم الرياضة في المعنى المشار إليه آنفاً.

تبقى الإشارة إلى أن بعض الوجه المظلم للرياضة المدرسية في الغرب المشار إليه في المقال، بدأ في العقد الأخير يتسرب إلى الشبيبة العرب عن طريق بعض الأندية وليس المدارس.

فإلى جانب المسائل النفسية غير السليمة المرافقة لتعاطي غير سليم مع الرياضة، نرى أن الهوس بالتفوق (ولو الشكلي فقط كما هو الحال في بناء الأجسام) يدفع بالآلاف من الشبان العرب إلى التعاطي غير المسؤول لأنواع من البروتينات والستيرويدات، تارة من دون أية مراقبة، وتارة تحت مراقبة المدرب الذي لا همّ له إلا بناء أجسام وعضلات لا يمكن لأصحابها توظيفها في الحصول على منحة جامعية، أو الانتقال بها إلى الاحتراف .. فتضعف وتتلاشى بمرور السنوات تاركة جسداً أتعبه العبث به.

متى يصبح الطفل مهيئاً للرياضة؟

التهيؤ هو المرحلة التي ينضج فيها الطفل بحيث يغدو من الضروري والممكن أن يَدرس ويفهم وينفذ دوراً معيناً. وفي سياق الرياضة، فإنها المرحلة التي يمتلك فيها الطفل القدرات الجسدية والعصبية والإدراكية والنفسية والاجتماعية اللازمة. ثمة تفاوت في النمو الطبيعي بين الأطفال يجعل الحديث عن سن محددة بدقة عالية صعباً. وفي المقابل، يجب ملاحظة مدى استعداد الأهل أيضاً ومدى التقبل الاجتماعي. وبينما يميل بعض الاختصاصيين إلى القول إن هناك سنوات معينة يجب أن تمارس فيها تمرينات محددة، فإن البعض الآخر لا يرى الأمور بهذه الحدة. ولا تدعم الدلائل العلمية الرأي القائل بأن المهارات الرياضية يجب اكتسابها قبل الوصول إلى سن البلوغ. وإذا أردنا وضع مصلحة الطفل وتطوره فوق كل اعتبار، فإن الدلائل تتوافر عن ضرورة تنويع النشاطات الرياضية للطفل، خصوصاً في السنين المبكرة من عمره. ومن الخطأ إرغام الطفل على التركيز على نوع محدد من النشاطات أو المهارات، تحت وهم أنه سيتقنها أكثر. ويميل العلماء إلى تحديد سن السادسة، وليس قبل ذلك، كمعدل عام للبدء في النشاط الرياضي الفعلي. ثمة تفاوتات هينة، لكن عمر الست سنوات يبدو مناسباً. أما النشاط المتخصص في الرياضة فيجب تأخيره إلى سن ثماني أو تسع سنوات، فالحال أن الرياضة تقتضي درجة معينة من نضوج الدماغ والقدرات العقلية والإدراكية والنفسية، وليس مجرد تكرار حركات محددة بعينها.
ومن الأهمية بمكان إعطاء انتباه خاص لمعطى التنافس. ويحتاج هذا الأمر إلى تفاعل نفسي وتماسك لا يتوافر قبل سن الثانية عشرة. هنا نجد أنفسنا أمام سؤال صعب، لكنه غالباً ما يتردد على ألسنة الأهل. هل طفلي مهيأ لرياضة معينة؟ أُجريت بحوث كثيرة في هذا المجال، لكن لم تتوافر دلائل كافية للقول بأن هناك من يولد مؤهلاً لنمط معين من الرياضة. ماذا عن العنصر الجيني؟ يتحدث العلماء عن عناصر وراثية (جينات) تؤهل الجسد لتحمل الأداء الرياضي العالي. وعلى الرغم من كل الحديث عن تفوق عدائي بعض قبائل إفريقيا في مسابقات الجري، إلا أنه من الصعب القول أنهم مهيأون للجري! يمكن القول أن عضلاتهم لا تتعب بسرعة، وبعضها لديه القدرة على إعطاء اندفاع قوي. وهناك عدد كبير من الرياضات تستفيد من هذه الأمور، والأرجح أن الوقت مازال مبكراً للحديث عن وجود تأهيل وراثي لرياضة محددة بعينها.

صباح يوم الخميس، آخر أيام شهر يوليو المنصرم، اشتريت الصحف اليومية كعادتي، ولكن مشاغل كثيرةً حالت دون أن أتمكن من قراءتها، وفي صباح يوم الجمعة قررت أن أطالع صحف يوم الخميس بسرعة، وعلى الرغم من السعادة الغامرة التي كنت أعيشها في ذلك اليوم تحديداً، لأسبابٍ خاصة، فإن شعوراً عميقاً بالحزن اجتاحني وأنا أقرأ خبر وفاة الأستاذ، العلّامة، المحقق، الناقد، الأديب، الشاعر، المفكر إحسان عباس، واسمحوا لي أن أتحفظ على جميع هذه الألقابِ لأنني لا أجد في أيٍّ منها ما يوازي ارتفاع هامته ومكانته العلمية، ولا عمق وثراء عطاءاته الفكرية.



الراعي الذي يفتقده.. كل من في المرعى

بوفاة إحسان عباس يترجّل عن حصانه فارسٌ آخر من فرسان الأدب والفكر والثقافة والتراث العربي، ويرحل عن دنيانا ذلك الراعي الذي أمضى في الغربة قرابة ستة عقودٍ كان طوال سنيها أميناً على رعيته، مخلصاً لرسالته وفياً لفكره ولتراث أمته.

فقد إحسان عباس وطنه في سني شبابه بما يكاد يشبه حادثة الاغتيال، إذ فقده وهو بعيدٌ عنه، ولكن نفسه الكبيرة أبت إلا أن تحوّل هذه المأساة العظيمة والجرح الغائر إلى وقود دافع يرتقي بها في سماء العطاء والإنتاج:

وإذا كانت النفوس كباراً
تعبت في مرادها الأجسام

ففضلاً عن تدريس الأدب والنقد الأدبي والتاريخ والحضارة في العديد من الجامعات العربية، وفضلاً عن الجوائز والأوسمة التي حازها كفاء ما قدمه من خدماتٍ جليلةٍ لفكر وأدب وتراث أمته، يقف أكثر من خمسةٍ وعشرين مؤلَّفاً، وأكثر من اثني عشر كتاباً مترجماً، وأكثر من خمسين كتاباً تراثياً محققاً أدلةً وشواهد على المكانة المتميزة التي تبوأها إحسان عباس يبن أقطاب الفكر والأدب والتراث العربي على مر عصوره عموماً وفي العصر الحاضر على وجه الخصوص.

ومع كل هذا، فإن ما يجعل إحسان عباس متميزاً بحق ليس غزارة الإنتاج، ولا جودته، ولا تنوعه فحسب، وإنما هو تلك العقلية المنفتحة المستنيرة التي جعلت منه واحداً من أبرز حراس التراث وحماته ومحققيه في نفس الوقت الذي أتاحت له أن يتذوق نتاج أقطاب الحداثة ويدبج فيهم الدراسات والبحوث، إن منفرداً أو مشتركاً مع آخرين. وبنظرةٍ عجلى على الثروة الهائلة التي خلفها إحسان عباس، إذا كان مثل هذه النظرة ممكناً، نرى أنه مع حرصه على تحقيق وتوثيق التراث ممثلاً في بعض أبرز رموزه، ككتاب وفيات الأعيان لابن خلكان وكتاب الخراج لأبي يوسف وكتاب نفح الطيب للمقّري، إلا أن نفسه كانت دائمة التوق لدراسة وتحليل كل إرهاصات أو ظواهر التجديد و"الخروج على المألوف" في الفكر والأدب العربي ومن ذلك دراساته وتحقيقاته عن شعر أبي العلاء المعري، وكتابات أبي حيان التوحيدي، ورسائل وأفكار ابن حزم، و دواوين عبدالوهاب البياتي وبدر شاكر السياب.

وهكذا نرى أن إحسان عباس جمع في قلبه الرحب وفكره النيّر بين الأصالة والتجديد، وبين العراقة والتطور، وبين حب الماضي والانتماء إليه والتطلع إلى المستقبل والانطلاق نحوه. وهي سمات لابد لكل من أراد أن يسبر غور عوالم الفكر الإنساني أن يتحلى بها. وليس أدل على أن إحسان عباس كان عاشقاً لدراسة كل جديدٍ والتعمق فيه، من الحزن الذي يستشفه القارئ عند اطلاعه على مذكراته التي نشرها تحت عنوان "غربة الراعي" حيث نسمعه يعبر بصراحةٍ عن عدم تمكنه من متابعة ما استجد في حركة النقد الحديثة مما أفرزته البنيوية والتفكيكية والحداثة وما بعد الحداثة وغيرها، حيث يشير بأسىً واضحٍ إلى أن كل هذه الأفكار والاتجاهات جدت بعدً الفترة التي كان هو ورصفاؤه من روادها ومعاصريها، وأنه ليس بمقدورهم أن يعيشوا عصرهم وعصر من يلونهم، وأكاد أجزم هنا بأنه لم يكن يتوق إلى مجرد الاطلاع على محتوى هذه التوجهات والتيارات الجديدة وإنما كان مشتاقاً إلى المشاركة فيها بنفس الفاعلية التي شارك بها في التيارات التجديدية التي سبقتها. ولا شك أن من نافلة القول إن من المزايا التي يتسم بها إحسان عباس ويتميز بها عن كثيرٍ ممن حوله من زملاء ومريدين هو أسلوبه الأدبي الرشيق الجذاب الذي يحيل النصوص والطروحات النقدية الجافة والعسيرة على الهضم نصوصاً مفعمةً بالحياة وبالجاذبية والقرب من القارئ.

لقد أتيحت لي فرصة لقاء إحسان عباس مرتين فقط، وكانا لقائين قصيرين ضمن جمعٍ من الناس في مناسباتٍ رسمية، ومع هذا فقد أتاحٍ لي هذان اللقاءان أن أتعرف، من كثبٍ، إلى عملاقٍ عرفته لسنواتٍ طويلةٍ من عمري عبر كتبه ودراساته وتحقيقاته، وتابعت بشغفٍ كل أو جل ما نشره في الصحافة أو قاله للإذاعة أو التلفزيون، وأصبح اسمه مقترناً في ذهني بأسماء مثل شوقي ضيف وشكري عياد ونقولا زيادة وحسن ظاظا وحمد الجاسر وغيرهم من منارات الفكر والأدب والتراث التي أضاءت مسيرة الجيل الذي أنتمي إليه. كذلك، أتيحت لي الفرصة لأتعرف، بحكم العمل، إلى شقيقه بكر عباس -الذي عمل لسنواتٍ طويلةٍ في قسم الترجمة بشركة أرامكو السعودية- فوجدته غصناً وارفاً من نفس الدوحة الظليلة التي أنبتت إحسان عباس، فقد كان كاتباً مجيداً ومترجماً جهبذاً لايشق له غبار، ولست أبالغ حين أقول أنني تعلمت من بكر عباس، ومن جلسة عملٍ واحدةٍ فقط، واحداً من أثمن الدروس التي تعلمتها فيما يتعلق بالترجمة وقواعدها.

لقد تعلمت، وتعلم جيلي، من إحسان عباس أن حب التراث والانتماء إليه لا يعني عدم التطلع إلى المستقبل أو رفض كل جديد، وأن الدنيا وعقول الناس وقلوبهم يمكن أن تتسع لأكثر من فكرةٍ وأكثر من رأي تكون، على اختلافها، عناصر إثراءٍ لا عوامل إضعاف، ولهذا فإنني أتساءل الآن، وقد نعى إلينا الناعي إحسان عباس، ودبج الكتاب والنقاد في رثائه وتأبينه المقالات والخطب، أتساءل: هل مات إحسان عباس فعلاً ؟؟؟

الأمر الذي لا شك فيه عندي هو أن إحسان عباس، وقد أفضى إلى ما قدّم وقدِم على ربٍّ لا يبخس الناس أشياءهم، باقٍ في ذاكرتنا وذاكرة هذه الأمة العظيمة بقاء الإنجازات المتميزة التي قدمها لنا وللتاريخ عبر سني عمره، وإذا كان إحسان عباس قد رحل عنا بجسمه وصورته فذلك هو تماماً ما حدث لكثيرٍ من العظماء الذين حُفرت أسماؤهم وأعمالهم في ذاكرة الأمة بأحرفٍ من نور.

السؤال الآن هو: من سيحمل المشعل، مشعل الفكر الأصيل والثقافة الرصينة والإخلاص للماضي مع الانطلاق نحو المستقبل، بعد إحسان عباس وأقرانه الذين نفقدهم واحداً بعد الآخر؟؟؟ الجواب، مع الأسف الشديد، ليس مريحاً إلى الحد الذي نأمله، أوعلى الأقل الذي آمله!!!

محمد عبدالحميد طحلاوي



كان الدكتور إحسان عبّاس- رحمه الله - قد كتب قبيل وفاته بأشهر قليلة مقالة بقيت غير منشورة، وربما كانت آخر مقالة كتبها قبل أن يسكت قلمه، حتى كان من الضروري على القارئ فكُّ التباس الحروف في بعض الكلمات حيث لم يُسعف القلم الكاتب في خَطِّها.
والقافلة تنشر هذه المقالة، ليس فقط لأنّ كاتبها هو أستاذ كبير وعلاّمة في الأدب العربي، بل لأنّها متفرّدة ومتميّزة في موضوعها وأسلوبها.
في هذه المقالة يحدثنا الدكتور إحسان عبّاس عن عمله في الترجمة، وما لاقى فيها من صعوبات بأسلوب يُقارب الحديث العفوي الحميم، حتى أنك تتخيّل نفسك تستمع إليه في واحدٍ من مجالسه الشيّقة.

تجربتي في الترجمة

بقلم الدكتور إحسان عبّاس

لم تكن إقامتي في الخمسينيات، في الخرطوم، توجهني إلى الترجمة، إذ كنت حديث العهد بالتدريس في كليّة جامعيّة (هي كليّة غوردون التذكاريّة). يشغلني ما أمامي من المهامّ التدريسيّة والتعرّف إلى ناس لم أكن أعرفهم، وبيئة يكاد يكون كلّ شيء فيها غير مألوف لديّ.. ومن ناحية أخرى لم تكن في الخرطوم حينئذ دار نشر أقدّم لها ما أترجمه، لو خطر لي أن أقوم بذلك.

ولكن في حوالي منتصف الخمسينيات وصلني من بيروت كتاب عنوانه (The Armed Vision) مؤلّفه ستانلي هايمن (S. Hyman)، أرسله صديقي الدكتور محمّد يوسف نجم، المدرّس بالجامعة الأميركيّة في بيروت لنتقاسم الكتاب المذكور، أي أترجم أنا نصفه ويترجم هو نصفه الثاني. وقرأت الكتاب كلّه فإذا هو كتاب يتحدّث عن أشهر النقاد الغربيين وعن منهج كلّ واحد منهم ومميزاته.
وتريّثت أفكّر وأعيد قراءة بعض الفصول وأحاول أن أضع بعض الملاحظات التي قد تعرض لي عن الصعوبات التي أواجهها في الترجمة. لم يكن الكتاب سهلاً، لأن موضوعه كان جديداً في نظري. وكنت في أيّام الطلبة في الكليّة العربيّة بالقدس قد ترجمت كتاب أرسطو "البويطيقا" (كتاب الشعر) من ترجمة إنجليزيّة؛ وكان كتاب الشعر قد ترجم إلى العربيّة قبل قرون عديدة، ترجمه متّى بن يونس ترجمة حرفيّة. ولم أكن أعرف هذه الترجمة ولا رأيتها، ولكن الترجمة الإنجليزيّة كانت تشير إلى بعض ما جاء في الترجمة العربيّة القديمة.لكن شتّان بين كتاب أرسطو وكتاب هايمن، إذ كان الثاني يعرض لجهود عدد غير قليل من النقاد وإلى مناهج ومقاربات متباينة، وكان كتاب أرسطو يعرض نظريّة المحاكاة، ويتحدّث عن التراجيديا والكوميديا، وكانت معرفتي بالمسرح الحديث قد ذلّلت صعوبات كثيرة في كتاب أرسطو كما أن معرفة العرب بنظريّة المحاكاة، التي يسمّونها التخييل، قد جعل ترجمة كتاب أرسطو أمرًا غير بالغ الصعوبة.
أما كتاب هايمن فكان نقداً للنقد. وكنت قرأت للتوحيدي أن الكلام على الكلام صعب. وصدق التوحيدي لأن نقد النقد شيء مركّب لا بسيط، وهو يحمل في ذاته صعوبة شديدة. ومع ذلك، وبما أن الكتاب يحمل معرفة جديدة بالنسبة إليّ، رأيت أنّ نقله للغة العربيّة مفيد في حركة النقد التي يسيطر عليها معارك كلاميّة ومهاترات لا ضرورة لها ولا نفع. فأقدمت على ترجمة الكتاب وأنا حائر كيف يمكن أن يترجم عنوانه، فلمّا أرسلت الترجمة إلى بيروت، وظهر الكتاب مطبوعاً وجدت الدكتور نجم قد اختار له "المدارس النقديّة الحديثة". وأذكر أن شخصاً لقيني بعد صدور الكتاب وأن أستاذاً له حين رأى الكتاب مترجماً قال: أكاد أقول إنه لا يقدم على ترجمة هذا الكتاب رجل عاقل، فقلت لناقل هذا الكلام: هذه شهادة يعتزّ بها اللذان ترجما الكتاب، لأن قائله يشير إلى الصعوبة التي كابدناها أنا وزميلي في الترجمة.

كانت هذه أوّل تجربة أواجهها في ميدان الترجمة، ولو كانت الترجمة مُخفقة لربما حملتني على هجر الترجمة، لكن نجاح هذه الخطوة شجّعني أنا وزميلي على الاستمرار فيها.

وفي أواخر الخمسينيات أنهيت ترجمة كتاب من تأليف كارلس بيكر، (C. Baker) وعنوانه (Hemingway: The writer as Artist) وكان أسهل من الكتاب الأول، لأنّه نقل شخصيّة همنغواي، ودراسة تطبيقيّة في قصصه ورواياته، بأسلوب سهل ممتع، وقد استطعت نقل الكتاب بأمانة ، وأن أختار له لغة قريبة في بساطتها من لغة مؤلِّفه، وقد أخذت من الكتاب، أنّ النقد قد يكتب بلغة تصل إلى جميع المثقفين سواء أكانوا قد قرأوا قصص همنغواي ورواياته أم لم يقرأوها، وذلك راجع إلى طبيعة الكتاب نفسه، فإنّ مؤلّفه كان رئيس قسم اللغة الإنجليزيّة بجامعة برنستون، وقد عمل على تدريب الطلاّب في ميدان النقد التطبيقي في الجامعة، وهو يربط بين تطوّر حياة همنغواي وبين تطوّر نتاجه ابتداء من الحقبة الباريسية في حياته حتّى كتاب "الملاّح الشيخ والبحر" (The old man and The sea) ولذلك كان سائغًا ممتعًا، وهو حافل بنظرات نقديّة جميلة. ولقد لقيت مؤلّفه حين ذهبت إلى جامعة برنستون أستاذًا زائراً سنة 1975م وتحدّثنا عن كتابه، وكنت لا أزال معجبًا بالكتاب وبموضوعه وبمؤلفه، وقد صدر عن دار الحياة للنشر ببيروت سنة 1959م.

كان كتاب الأستاذ بيكر فترة راحة بين صعوبتين، فإذا كان كتاب هايمن صعباً فإنّ كتاب إرنست كاسيرر (E. Cassearer) أشدّ صعوبة، لأنّه في المقام الأوّل كتاب فلسفي يحمل خلاصة نظرية كاتبه الفلسفيّة، وعنوانه "An Essay on Man" وحاولت أن أتعرّف إلى المؤلّف قبل البدء بالترجمة فعرفت أنّه، في الفلسفة، من مدرسة الفيلسوف الألماني "كانط"، وأنّه كان يحفظ بعض فصول كانط، ويلقيها في محاضراته دون أن يكون بين يديه كتاب، وأنّه هاجر في الحرب العالميّة الثانية إلى كندا، وكانت لغته الإنجليزيّة إذا كتب بها تتطلّب من يراجعها، وأنّ الكتاب الذي سأترجمه هو خلاصة لكتابٍ له كبير صدر مترجماً إلى الإنجليزية في ثلاثة أجزاء ضخمة، فكان لا بدّ لي من أن أطّلع على هذا الكتاب الضخم؛ فصرفت وقتاً طويلاً في قراءته، وهو كتاب يدور حول الأشكال الرمزيّة، وأنّ كلّ شيء في الوجود رمز: اللغة رمز، وكلّ علم من العلوم رمز. ولذلك كان اسم كتابه The Philosophy of Symbolic Forms وفي هذا بعض تحوير لمقولة كانط Human Mind is in need for pictures فجاء كاسيرر بقوله إنّ العقل الإنساني في حاجة إلى رموز أو إنّ الإنسان حيوان ذو رموز. ففلسفة كاسيرر هي أن يُبيّن كيف يشتغل بالرموز. إنّ الصلة بين هذا الكتاب وبين النقد الأدبي صلة غير مباشرة، ولذلك كنت أحاول أن أقنع نفسي أنّ النقد الأدبي لا يحيا بغير الفلسفة وأنّه بحاجة ماسّة إليها. وأقرب فلسفة إليه هي الفلسفة التي تدور حول الحضارة الإنسانيّة، ولذلك سمّيت الكتاب حين ترجمته "مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانيّة" وجعلته عنوانه الأصلي، وجعلت "مقال في الإنسان" عنواناً فرعيًا، وقد نشر الكتاب في دار الأندلس ببيروت سنة 1961م.

كانت الأضواء التي تهديني إلى ما أترجمه لا تزال تنبعث من النقد الأدبي. وفي محاولتي لمتابعة هذا الدور اخترت كتاباً يتناول شاعراً أحبّ شعره، ورصدّت أثر شعره في الشعر العربي الحديث، وذلك هو ت. س. إليوت. فلمّا وقع في يدي كتاب ناقد مشهور عن ذلك الشاعر قلت لنفسي: سيكون هذا الكتاب موضع عنايتي. وبعد أن اطمأنّت نفسي إلى قيمة الكتاب النقديّة قرّرت أن أترجمه. ذلك هو كتاب The Achievement of T.S. Eliot ومؤلّفه هو: "F. O. Mathiessen" وكان نهج ماثيسن مختلفًا عن نهج ك. بيكر في دراسة همنغواي. ولعلّ سبب ذلك أنّ همنغواي كان قاصّاً وروائياً، بينما كان إليوت شاعراً مجدّداً ومسرحياً وناقداً. ويتألّف كتاب ماثيسن بعد المقدّمة من تسعة فصول، وكلّ فصل مشفوع بتعليقات ويقع في الطبعة العربيّة التي قامت بنشرها المكتبة العصريّة (بيروت - صيدا، 1965م) في 44 صفحة من القطع المتوسّط. ولا أصف ترجمتي له بالسهولة أو بالصعوبة، فقد تعوّد قلمي على الترجمة، وأصبحت الكتب متقاربة ما دامت قد خضعت لإرادة ترجمتها.

إلى هذا الحدّ كان كلّ ما ترجمته ذا صلة وثيقة أو عارضة بالنقد الأدبي. هل أستمرّ في هذا الخطّ أو أبتعد عنه قليلاً؟ ومن دون أن أفكّر أي كتاب

النقد الأدبي لا يحيا بغير الفلسفة.. كانت الأضواء التي تهديني إلى ما أترجمه لا تزال تنبعث من النقد الأدبي

أختار، صادف أن جاء المستر Datus Smith رئيس مؤسسة فرنكلين إلى بيروت. وحين قابلته قال لي: إنّ لي أمنية وهي أن أرى رائعة "هرمان ملفل" رواية "موبي ديك"،- وهي خير أثر كلاسيكي في الرواية الأميركيّة - مترجمة إلى اللغة العربيّة. وقد سألت بعض العارفين من يرشّحون لترجمتها، وأكثرهم ذكروا اسمك. قلت له: هذه رواية صعبة لأنّها تنتمي إلى بيئة البحر وأنواع الحيتان وأعتقد أنّ العربيّة ليست غنيّة بالمصطلحات البحريّة وأنواع السفن والحيتان، وفيها صعوبات أخرى لا تذلّلها إلا طبعة مزوّدة بشروح كافية وبتعليقات. قال لي: يعني ذلك من حيث المبدأ أنك توافق على ترجمتها إذا توافرت الطبعة التي تصفها. قلت: دعني أقرأ الرواية قراءة جديدة، وأقدّر كم من صعوبتها يتلاشى وكم يبقى. فإذا اطمأنّت نفسي إلى أنّ عملي لن يصاب بالإخفاق مضيت في ترجمتها على ضوء النسخة التي طلبتها. وحين عاد رئيس مكتب فرانكلين أرسل إليّ بالبريد النسخة. كانت نِعمَ العون على الترجمة. ووطّنت النفس على أن أحتفظ للرواية بمستوى أسلوب رفيع مشابه لأسلوبها في اللغة الإنجليزيّة. واستغرقت ترجمتها مدّة تزيد على سنة ونصف بين التسويد والتبييض والمراجعة والتنقيح، وانسجمت كثيراً في الترجمة، حتّى أنني أعد ما حاولته في موبي ديك قمّة عملي في الترجمة، حتى قال لي أخي بكر: أنا لا أحبّ قراءة الكتب المترجمة (وهو مترجم عريق) ولكني حين بدأت قراءة موبي ديك مترجمة إلى العربيّة لم أضعها جانباً إلا بعد أن أنهيتها.
وأنا أعتقد أنّ أخي - رحمه الله - لم يكن يجاملني، فذلك ليس من طبعه، بل أعتقد أنّ ترجمة موبي ديك تستحقّ الجهد الذي بذلته في ترجمتها.

كلّ هذه الكتب التي تحدّثت عنها كانت لمؤلّفين أميركيين، ولهذا نلت جائزة جامعة كولومبيا بنيويورك للترجمة سنة 1983م وكان ذلك مفاجئًا لي وغير متوقّع.

لكن عملي في الترجمة لم يقتصر على ما ذكرت، فقد ترجمت بحوثًا في الحضارة الإسلاميّة وأنا في بيروت، كما ترجمت سلسلة بحوث كتبها الأستاذ جورج مقدسي في نظام التعليم الإسلامي، والمدارس ودور الجامع في الحياة الثقافيّة، ونشرت ما ترجمت في مجلّة الأبحاث التي تصدرها الجامعة الأميركيّة ببيروت.

الترجمة على المستوى العام خير حوار بين الحضارات.. والعقليّة العربيّة لم تكن ضد الترجمة في أي عصر من العصور

وحين انتقلت إلى عمّان وعملت في تاريخ بلاد الشام ترجمت بحوثاً تاريخيّة غير كثيرة، من أهمّها بحث عن مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانيّة وهو فصل من كتاب "Cites of the Eastern Roman Provinces" ومؤلّفه هو "المؤرّخ A. H. M. James" وبعد مدّة قصيرة من إقامتي في عمّان دعاني قسم اللغة الإنجليزيّة في الجامعة الأردنيّة لتدريس مجموعة من الطلاّب الترجمة الأدبيّة وتدريبهم عليها. فوضعت بين أيدي الطلاّب عدداً من القصائد الإنجليزيّة، ونماذج من القصّة القصيرة، وكان درساً حيوياً وكان إقبال الطلاّب على العمل في الترجمة إقبالاً باهراً. وقد وجدت لديهم استعداداً أصيلاً للترجمة.

إنّ الترجمة على المستوى العامّ خير حوار بين الحضارات، ولا تستطيع حضارة أن تستغني عن الترجمة، فهي تنمّي التواصل الثقافي. وقد عرف العرب أهميّة الترجمة للعلوم اليونانيّة في العصر العباسي، إذ كانت سبب نهضتهم الثقافيّة أو أحد أسبابها، كما عرفوا ما أفاد الغرب من ترجمة الكتب العربيّة ذات الأصل اليوناني في عصر النهضة.

أمّا على المستوى الخاصّ فهي خير وسيلة لترسيخ المعارف الجديدة في نفس المترجم والقارئ. إنّ من يزعمون أنّ العقليّة العربيّة مُغْلَقَة دون الترجمة لم يدركوا حقيقة العقليّة العربيّة التي لم تكن ضد الترجمة في أي عصر من العصور. لكنّ الترجمة على نطاق واسع تحتاج إلى مؤسسات تقرّر من يترجِم وما يترجَم، وتلاحظ الأولويات في الموضوعات. وتشكو الترجمة اليوم في العالم العربي من الفوضى وفقر المصطلح، وكلّ هذا تقع مسؤوليته على الدول والمؤسّسات الثقافيّة. لا بدّ من الترجمة في كلّ قطر عربيّ، ولا بدّ من توفير ميزانيّة للبحوث وللترجمة. ولكن ليس للأقطار العربيّة المجزّأة المال المرصود للبحث وللترجمة. وأكثر الدول العربيّة يشكو من قلّة الدخل وانتشار الفقر. ولا بدّ من مساعدة الدول العربيّة الغنيّة للدول الفقيرة، وتوجيه الاهتمام إلى البحث العلمي وإلى الترجمة، وإلى إثراء اللغة بإدخال المصطلحات الجديدة كما هي أو بتعريبها.

إنّ تدريس الترجمة في الجامعات غير كافٍ، وإن كان موجودًا على نطاق ضيّق.

لا بد لشاعر عظيم كأبي الطيب المتنبي، الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، أن يكثُر حاسدوه؛ ويُحاول من استطاع منهم كَيْل التُهم له وإثارة نقمة مَنْ يقرِّبه من الولاة والأمراء عليه. غير أنَّ هذا الشاعر الفذّ ترك آثاره العظيمة ليخلدها الزمان، و منها هذه الشوارد التي نوردها هنا.

المتنبي يداعب دمية!

هذه الأبيات القليلة تحمل في طيّها دُعابة وطرافة وظرفاً لا نعهده في شعر المتنبي. بل نراها، على بساطة الموضوع تحمل وصفاً جميلاً، ومدحاً، وفخراً بالنفس، وشكّاً بالحاسد وفرحاً بالانتصار وإثباتاً للمقدرة الشعرية ...

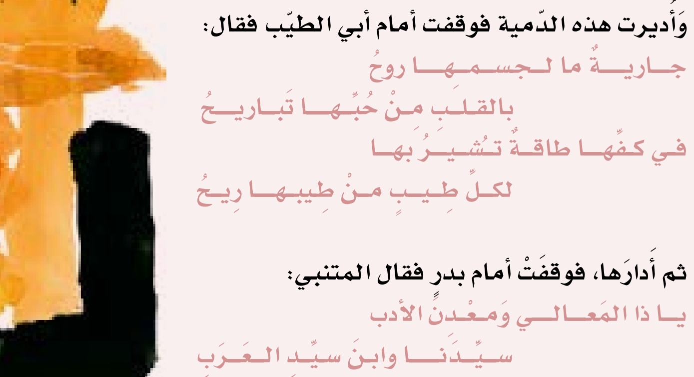
من الذين كانوا يحسدون أبا الطيب لسرعة خاطره في ارتجال الشعر رجل يُعرف بابن كروس. ويُروى أن ابن كروس التقى المتنبي في مجلس من مجالس بدر بن عامر، فألمح لبدر أن المتنبي يعمل شعره ويُعدّه قبل حضوره إليه.

فقال بدر: "مثل هذا لا يجوز أن يكون، وأنا أمتحنه بشيء أُحَضّره للوقت".

فلمّا اكتمل المجلسُ، أَخرج بدر لُعبةً كان قد أَعَدَّها، لها شعر في طولِها، تدور على لولب وإحدى رجليها مرفوعة، وفي يدها باقة ريحان. وهي تُدار على الحاضرين، فإذا وَقفت أمام أحدهم نَقَرها فدارت، فقال أبو الطيّب فيها مُرتجلاً:

وجاريـــةٍ شَعْـــرُهـــا شَـطْـرُهـــا
مُـحَـكَّـمَـــة نـافــذ أَمْـرُهــــا
تـــدورُ وَفــــي كَـفـهِّـا طـاقـةٌ
تَضَمـنَّنَهـا مُكرَهـاً شِـبـْرُهـا[1]
فـإن أسْكَرَتْـنــا فـفـي جَهْـلـهــا
بمــا فَعَـلَـتْــهُ بِـنــا عُـذْرُهـــا

(1) أي أن هذه الطاقة من الريحان وُضعت في يدها على غير اختيار لأنّها لا تَعْقل.



وَأُديرت هذه الدّمية فوقفت أمام أبي الطيّب فقال:

جـاريـــةٌ ما لـجسـمـهـــا روحُ
بالقـلـبِ مـنْ حُبِّـهــا تَبـاريــحُ
فـي كـفِّهـــا طاقـةٌ تـُشَـيـرُ بهـا
لكـلِّ طِـيـبٍ مـنْ طِيبـهـا رِيـحُ

ثم أَدارَها، فوقفَتْ أمام بدرٍ فقال المتنبي:

يــا ذا المَعــالــي وَمـعْـدنٍ الأدب
سـيِّـدَنـــا وابـنَ سيِّـدِ الـعَـرَبِ
(. . . . . .)
أَهــذِهِ قابـلَــتْــــك راقـصَـــــةً
أم رَفَـعَــتْ رِجلَــها من التَّعَـبِ؟

وأضاف يمدحه، وَيَصفُ الدمية بقوله:

إنَّ الأمـيـــرَ أدامَ اللّه دولَـــتَـــــهُ
لَفَاخرٌ كُسيَـتْ فَخْراً بــه مُضَـــرُ
في الشَّرْبِ جاريةٌ مِنْ تَحْتها خَشَبٌ
مــا كــانَ والدَهــا جِنٌّ ولا بَشَــرُ
قامَتْ على فَرْدِ رجل مِنْ مَهابَتـه
وَلَيسَ تعقِلُ مـا تأتي ومـا تَـذَرُ[1]

وأُديرتْ ثانيةً فَسَقَطَتْ، فقال:

مَـــا نَقَلَـتْ عِنـد مَشْيــة قَدَمَـــا
ولا اشْتَكَـتْ مِنْ دُوارِهــا أَلَمَـــا
لَمْ أَرَ شخصـاً مِنْ قَبْـل رُؤيتـهـــا
يَفْعَـل أفعـالَـهــا وَمَـا عَزَمَـــا[2]
فَلا تَلُمْـهـــا علــى تَوَاقُـعـهـــا
أَطْرَبَـهـــا أنْ رَأتْــك مُبْتسِـمـــا

ويُقال إنَّ المتنبي وَصفها بشعْر كثير، وهجَاها أيضاً بمثله (لم تحفظ تلك الأبيات). فما كان من ابن كروس إلاَّ أنْ خَجِلَ على عمله ذاك. وأمر بَدْر بِرَفْعها، فَرُفِعَتْ. فارتجل المتنبي.

(1) أي لا تعرف ما تفعله وما تتركه.
(2) أي هو لا يقصد هذه الأفعال.

وَذاتِ غدائِــرٍ[1] لا عَـيْــبَ فيـهـــا
ســوى أنْ ليسَ تَصْلُـحُ للعِنـــاقِ
إذا هَجَرَتْ فـعَــنْ غيــرِ اختيـــار
وإنْ زارَت فَعَــنْ غيــرِ اشْتِيـــاقِ
أَمَرْتَ بــأنْ تُـشـــالَ فَفارَقتْـنـــا
وَما أَلِمَـتْ لحــادثــةِ الـفِـــراقِ

وداخل أبا الطيب الشكُّ في موقف ابن كروسٍ فسأل بَدْراً:

"ما حَملك أيها الأمير على ما فَعَلْتَ؟"

(1) خصلة من الشَعر.

فأجابه بدر:

"أردْتُ نَفْيَ الظَنَّة عن أدَبِكَ" فقال:

زَعَمْتَ أنَـكَ تنفي الظنّ عن أدبي
وأنتَ أعظـمُ أهـل الأرضِ مقـدارا
إنّي أنا الذّهبُ المعروفُ مَخْبَرُهُ[1]
يزيد في السّبكَ للدينَارِ دينـارا[2]

فعاجَلَهُ بَدْرُ بقوله: "بل للدينار قنْطارا".

فَرَدّ المتنبي بأبيات يمدح فيها كَرَمه ومنها:

بِرَجـــاءِ جـودِكَ يُطْــرَدُ الفَـقْــرُ
وَبأنْ تُـعَـــادَى يَنْـفَــدُ العُـمْـــرُ

(1) المراد بالمخبر الخبرة.
(2) يقول عن نفسه إنه بالامتحان ترتفع منزلته ويتضاعف فضله كالذهب الخالص إذا اختُبر بالسبك تزداد قيمته.

.. ذلك الطفل الذي كنت

البحث عن الطفولة الضائعة في الشعر العربي الحديث

اختيار وتعليق الشاعر شوقي بزيع

يدين الشعراء في معظم ما يكتبونه من شعر لتلك الريح القادمة من جهة الطفولة محمَّلة بعبق البدايات، وروائح التراب البكر. ففي تلك الأماكن النائية وحدها يختلط ضوء الشمس بمياه الظلمات، ولمعان النجوم الأولى بما يرشح عن الأسَّرة من حداء أمومي. والمقطوعات الرائعة التي عثرت عليها في أعمال أدونيس ومحمد الفيتوري ونزار قباني وصلاح عبد الصبور ومحمود درويش وأمل دنقل تكاد تكون تنويعا على المعنى ذاته ورثاءً للطفولة الهاربة إياها ومحاولة مضنية لاستنطاق ذلك الطفل المغيَّب في دواخلهم بوصفه القشة الأخيرة التي تعصمهم من الهلاك.

الى أمي

أحنُّ إلى خبز أمي
وقهوة أمي.. ولمسة أمي..
وتكبر فيَّ الطفولة يوماً على
صدر أمي
وأعشق عمري لأني
إذا متُّ،
أخجل من دمع أمي!
خذيني/ إذا عدتُ يوماً
وشاحاً لهدبك
ضعيني، إذا ما رجعت
وقوداً بتنور نارك..
وحبل غسيل على سطح دارك
لأني فقدت الوقوف بدون صلاة
نهارك
هرمتُ، فردي نجوم الطفولة
حتى أشارك
صغار العصافير
درب الرجوع.. لعشِّ انتظارك!

محمود درويش

صورة

هل أنا كنت طفلاً..
أمَ انَّ الذي كان طفلاً سواي؟
هذه الصورة العائلية..
كان أبي جالساً، وأنا واقفٌ..
تتدلى يداي!
رفسة من فرس
تركت في جبيني شجاً، وعلمت
القلب أن يحترس.
أتذكر...
سال دمي
أتذكر...
مات أبي نازفاً.
أتذكر..
أختي الصغيرة ذات الربيعين.
لا أتذكر حتى الطريق إلى قبرها
المنطمس
أوَ كان الصبيُّ الصغير أنا؟
أم ترى كان غيري؟
(...)

أمل دنقل

أول الكلام

ذلك الطفل الذي كنتُ، أتاني
مرةً،
وجهاً غريباً.
لم يقل شيئاً. مشينا
وكلانا يرمق الآخر في صمتٍ.
خطانا
نهَرٌ يجري غريباً.
(...)

أدونيس

لا شعر غنياً إذن بلا طفولة غنية. فهناك فقط تنتصب الشجرة الهائلة للاستعارات التي يقطفها الشعراء كما يقطف الفلاحون الثمار. والشعراء ليسوا سوى الأبناء الشرعيين لأبوة الطفل الذي كانوه. لذلك لم يتردد الشاعر الإنجليزي ألكسندر بوب في القول بأن "الطفل هو أب الرجل".

٥ رسائل الى أمي

أيا أُمِّي ..
أنا الوَلَدُ الذي أَبْحَرْ ..
ولا زالَتْ بخاطرِه
تعيشُ عَرُوسَةُ السُكَّرْ
فكيفَ .. فكيفَ .. يا أُمِّي
غَدَوْتُ أباً ..
ولم أَكبُرْ ؟.

نزار قباني

هذه الحقيقة الإنسانية بالذات هي التي دفعت الناقد الفرنسي فرانس هيلينز إلى الاعتراف بأن "الطفولة ليست مجرد ذكرى. إنها الكنز الأكثر حياة، وهي تستمر بإغنائنا رغماً عنا. وويل لمن لا يقدر أن يستعيد طفولته أو أن يدركها كجسدٍ في جسده الخاص، أو كدم جديد في الدم القديم"[٤].

طفل

قولي .. أمات
جسيه .. جسي وجنتيه
هذا البريق
(...)
هذا الصبي ابن السنين الداميات
العاريات من الفرح
هو فرحتي، لا تلمسيه !
أسكنتُهُ صدري فنام
وسَّدْتُه قلبي الكبير
وسقيت مدفنه دمي
وجعلتُ حائطه الضلوع
وأنرت من هدبي الشموع
ليزوره عمري الظمي (....)

صلاح عبد الصبور

الطفل والعاصفة

لأكاد أراه .. أرى جثته
ملقاة فوق العشب
فأصيح بها: يا ريح قفي
رديه .. فتنهار الأصداء
وتمتد قصور الرعب
وأطوف مع الليل حزينا
أجري .. والمأساة أمامي
تجري .. ها أنذا يا طفلي
آت أتسلق أيامي
ها أنذا يا طفل الرغبه
أضفر من أجلك أحلامي
ها أنذا .. حتى ينمو العشب
ويتعانق فوق رخامي.

محمد الفيتوري

لم يقصر الشعر العربي منذ بداياته في استيلاد المعاني التي تحول الحياة برمتها إلى طلل مبلَّل بالحنين والترجيح والتعلق بأهداب الماضيً، أو إلى التلفُّت بالقلب، وفق الشريف الرضي، نحو مصدر الغبطة الأرضية. وأكثر ما أدهشني وأنا أتصفح ديوان الشعر العربي الحديث هو رغبة الشعراء في استعادة الطفل الذي كانوه والذي يتوارى كفلذة من الذهب وراء جبلٍ من الهزائم والعثرات وخيباتً الأمل.

حين صدرت رواية (سقف الكفاية)، العام الماضي، اعتبر كاتبها أصغر كاتب رواية سعودي. لكن الوسط الثقافي المحلي لم يحتفل بالرواية تشجيعاً لابن الثلاثة وعشرين ربيعاً؛ وإنما لأن العمل كان على درجة حقيقية من النضج. وسرعان ما وقعت الرواية تحت مجهر النقد الجاد الذي صادق على أهميتها ضمن الواقع الثقافي والاجتماعي العام.

القاص جعفر الجشي؛ يتناول الرواية، مركزاً على محورها العام، ويحاول فهم التجربة الذاتية لدى محمد حسن علوان..

محمد علوان المنقسم بين الرياض وفانكوفر

سقف الكلام وسقف الكفاية..!

تبدو "سقف الكفاية" وكأنها سقف لرؤيتنا للأشياء. ويبدو الراوي وكأنه رسَم خطاً أحمر نستطيع من خلاله تشخيص واقعنا دون أن يكون لنا فسحة أخرى غير هذا السقف. ومهما حاولنا أن نبدو متجاوزين لحدود الواقع فإن ثمة اصطداماً ما سيحدث..! الحب واحدٌ من القضايا الحساسة التي نتلمسها في أكثر الأعمال الروائية السعودية التي صدرت في السنوات العشر الماضية. وفي "سقف الكفاية" يصرخ هذا الوتر بكل التفاصيل. أما المكان فله خصوصية طاغية في الرواية، وناصر بطل الرواية (أو قل قيس إن شئت) هو حبيب مها تلك الفتاة التي تركت في ضميره غيرة وكمداً لأنها فضلت غيره عليه. ويعلم أن مها ليست من نصيبه، ومع ذلك فإنها حين تزوجت لم يصدق نفسه وبقي طيلة الرواية يعاتبها ويحلم بأنها ملكه هو. ولما يئس، حزم حقائبه وسافر إلى (فانكوفر) بكندا لاتمام دراسته.

البوح والنزف والشعر ثلاثية متلازمة طوال 400 صفحة، ولئن كانت الرياض (الجزء الأول مكاناً) أحداثاً وقعت وانتهت، وتزوجت فيها مها تاركة ناصر يعاشر واقعه المر، فإن فانكوفر (الجزء الثاني مكاناً آخر) أصبحت الجرح الأكبر، ففيها يلفظ ذكرياته القاتلة مع كل فنجان قهوة، وكل حوار مع (ديار) ذلك الصديق العراقي الذي صاحبه طوال فترة بقائه في فانكوفر قبل أن يرحل إلى لندن في نهاية الرواية. بقيت مها في كل مسافة يخطوها نحو الجامعة أو السوق بل وحتى في كل كلمة مع جارته المشلولة (مس تنغل) التي قضت نحبها، فيما بعد، دون أن يلتفت إليها أحد. تلك الجارة حاولت مواساته وتهدئة مشاعره، لكنها لم تفلح، وإنما أججت ناره وجعلت مها حاضرة في كل آهة يزفرها أو نظرة إلى الوراء يرمقها.



محمد حسن علوان

من مواليد مدينة الرياض، في 27 أغسطس 1979م.
يحمل بكالوريوس في نظم الـ معلومات، من كلية الحاسب الآلي، جامعة الملك سعود بالرياض، ويعمل في أحد المصارف السعودية.
يكتب القصة القصيرة، والشعر.
و(سقف الكفاية) هي عمله الروائي الأول. وقد نشرتها دار الفارابي البيروتية عام 2002م.
له موقع على شبكة الإنترنت يستعرض فيه نصوصه الشعرية والقصصية. وعنوانه:
www.alalwan.com

الشخصيات من أجل الغائبة

استطاع الراوي أن يوظف كل شخصيات العمل من أجل مها وناصر، بل من أجل مها وحدها. فوالده المتوفّى كان حاضراً للمقارنة مع مها، ولكونه رحيماً جاءت الرحمة لمها، وكونه عطوفاً استلّ العطف قلب مها، ولأنه ترك ابنه ناصر صغيراً فإن مها تركته أيضاً وهو صغير على الحب. فهو لم يحب سواها ولم يعرف غيرها.

وحين يتذكر جدته فإنه يربطها بمها ويحاول أن يُسقط كل حياته معها ومع مكابدتها من أجله ومن أجل أخواته إلى أن ماتت ولم يمت حب مها من قلبه. وأمه أيضاً تلك المتبتلة التي لم تفارق صورته مخيلتها وظلت طوال فترة بقائه في الغربة تصلي وتدعو له، صارت حاضرة في حياته من أجل استحضار مها ليرينا كيف كان يتجاوز رقابتها وحرصها عليه ويسرق الوقت ويذهب للقائها. عندما يرن جرس الهاتف وتكون أمه تحادثه ينهي المكالمة بسرعة ثم ينطلق لتلك المكالمة السريعة التي افتتح بها الرواية. تلك المكالمة القصيرة التي لم تتجاوز عشراً من الثواني ولم يكن هو قد رد عليها وإنما كانت مسجلة. تلك المكالمة التي جاءت افتتاحية وظلت تلاحقه حتى النهاية.

الفتاة تطارده..!

ظل ناصر في فانكوفر على مدى قرابة 250 صفحة يحاول علاج ذاكرته المخضبة بالعشق الفاشل، ولكنه بدلاً عن ذلك أخذ في جلد ذاته، وظل يقتات على فتات ذلك الحب ظناً منه أنه يشفي غليله، ظل يعاتب المحبوبة الغائبة الحاضرة على نسيانها له وتجاهلها إياه وبقائها في حضن غريمه متجللة بالصمت راضية بالمصير، غير حاضرة في أوراقه سوى بصورة الماضي. ذلك الماضي الذي استحوذ على العمل بأكمله، ولم تكن مها تقوى على الحضور لأن دورها كان قد انتهى يوم أن تزوجت سالم.

وديار الذي ملأ حياة ناصر طوال أربع سنين أصبح الشخصية الوحيدة الحاضرة معه ومع الراوي، فلم يكن هناك مجال للذاكرة وفانكوفر هو المكان الوحيد في الرواية رغم قلة الأمكنة الذي مارس حضوره فيها طوال الصفحات، بينما الرياض ومها ظلتا قادرتين على العطاء من خلال خيط بسيط في ثقب من ذاكرة لشخص يدعى ناصر، ابتكره الكاتب ليسطر تلك الملحمة من الحب الفاشل. أربع سنوات قضاها ناصر في الغربة محاولاً الابتعاد عن مها، وبدلاً عن ذلك صارت أكثر قرباً منه، أكثر ألماً، أكثر حرقة، أكثر انصهاراً. وقد حاول أن يهرب من مها بتسطير أحداث مرت على ديار كعراقي في المهجر. وكعراقي مرت عليه حقب من الظلم والاضطهاد..

ماتت مس تنغل الجارة الحنونة ذات الستين عاماً التي كانت تؤنس وحدته وغربته وآوته في منزلها وشاركته بعض الهموم فأحس بالمزيد من الوحشة. تدهورت صحته حتى كاد يقضي على نفسه وبصعوبة استطاع تجاوز الأزمة في المستشفى. كان ديار يهزأ منه كعادته ويقول له بأن امرأة لم تخلق لكل هذا الجنون مبدياً رغبته في السفر إليها وإخبارها بهلاك حبيبها من أجلها. كان ديار صادقاً في دعواه لكن ناصراً ظل في ضلاله القديم يغار عليها حتى من دعوة صديقه الحميم، وهي التي تزوجت بآخر.

تلك التي كانت..!

انقضت أغلب صفحات الرواية ولم تظهر مها. لم تحاول أن تشفي غليل ناصر أو رغبة القارئ في التعرف على ذلك النمط من النساء، ليبقى المتلقي يوجه تهمته الكبيرة للكاتب بأنه أبقى السارد مهيمناً على كل جزئية في الرواية، فما الذي أدرانا أن ناصراً لا يكذب وأن كل الأحداث ملفقة وأنه هو من ابتكر تلك الشخصيات الرجالية التي كانت تنافسه؟ هل كان ناصر (والكاتب) يرغب في تفرد من نوع ما؟ ليوهمنا بأنه البطل الهمام، وأنه ذلك النوع من الرجال العصاميين الذي يحتفظون بهزيمتهم لوحدهم؟ لماذا لم يعط مها الفرصة لتقول كلمتها؟ لماذا سجل النزف كله على لسان ناصر وحده؟ ليس لنا سوى أن نكون رقباء ومشاهدين، وعلى ناصر أن يتحمل نتيجة بوحه ونتيجة تفرده.

هل كان صادقاً حينما قال في النهاية الجنائزية «حان الوقت لأغير ملامحي، حان الوقت لأقتلع مها من عيون الدنيا، وأعيدها إلى قلبي.. وانتظرتُ أياماً حتى تبرد عاطفتي من حرارة البوح، ثم حمل البريد روايتي إلى بلد بعيد، لم أكن بالغه.. إلا بشق الكتابة..! بعد شهر كنت أجلس في المجلس الصغير الذي كتبت فيه الفصول الأخيرة، أكنس المكان وراء ذاكرتي بهدوء عندما دخلت مها..».

هل نصدق أنها مها الحقيقية داخل الرواية ولماذا اكتنزها حتى الحرف الأخير؟ إنها لعبة الرواية، فإن كان هناك سقف لنهايتنا، فمتى نعرف أن هناك نهاية لسقف الكلام؟

سطور من سقف الكفاية



فهمتُ – بعد سنوات – أنها لم تكن تشعُرُ بي في مداراتها اليومية، أشياءُ لصيقةٌ جداً بي، البحر هنا.. والثلج هناك.. الأرصفةُ التي تمشي ونحن واقفون، مقود السيارة الذي يُشكِّلُ الطريق، شرفةُ المنـزل التي تغرُبُ عن الشمس، ملابسي التي تبتلُّ فوقها السماء، وأنا أيضاً.. لم أكن أشعُرُ بنفسي !.

وأنا أيضاً لم أكن أشعر بنفسي مع ديار!، كانت أعصابي ترتجفُ في داخلي، أشعلنا سيجارتين معاً هذه المرة، وانسَحَبَ الدخانُ إلى رئتيه بقوة، وظلَّت لفافتي تأكلها النار على مهل.. لم أكن أستعجِلُ موتها، ربما كرهتُ أن أسلِّم للريح ضحيةً أخرى!..
قلتُ بهدوءٍ قَلِقٍ..
– لن تتـركَ الأشـياءُ واجـباتها الكـونية من أجلنا يا ديار!.
– أدركتُ هذا متأخراً للأسف، وبقيتُ لسنتين أهربُ من وجهٍ لا أراه، ولكني أظنُّه يطاردني منذ لفظني العراق، حاولتُ أن أستعيد نفسي من هذه الأشياء .. ولكنَّها كانت تجهلُ أين تَرَكتني آخر مرة!.

وقفنا لنمشي، سبقني هو بخطوات، ووقفتُ أنا لأتأمَّلَ قامته من الخلف..

هذا الصاري الملقى هنا منذ انتفض الجوع!، كم من الأعاصير تقاذفته موجةً بعد موجة.. حتى وصل إلى هذا الشاطئ!، وكم من صهواتِ الحزن، كان عليه أن يمتطي حتى يقف هنا يوماً ما ؟!.

مشيتُ معه..
ربما كنتُ أحتاج ذاكرةً أخرى .. وبلداً آخر، أنا الذي التحفتُ بالغربة قبل أن يفقِدَ قلبي حزنه، وقبل أن أجفَّ في صحراء بلادي، قررتُ أن أركُمَ كلماتي على بعضها قبل أن يستفحِلَ الصمتُ في جسدي !.
يقول..
– صار حزنكم أيضاً ترفاً تستمتعون به!، كأنك لم تفارِقْ وطنك يوماً وأنت تعلم أنك لا تقدر أن تعود إليه.. ستحملك الريحُ بعيداً.. قبل أن تجرِّب حدَّاً من الألم، وقَدْراً من البرد، يُعلِّمك كيف تنسى هجرتك المترفة هذه .. وتعودَ إلى وطنك !.

في عينيه ثمَّةُ عطف، ولكنَّ كلماته قاسية.. تعوَّدتُ عليها قليلاً، لأن هذا ليس هجومه الأول، لعدةِ مراتٍ التقينا في مقهىً كبير خلف شارع «روبسون» في فانكوفر، وفي كلِّ مرةٍ كانت تهاجمني عيناه.. حتى تعارفنا .. فاتَّخَذَ لهجومه أسلحةً أخرى..

كان عربياً .. بنظراته..
يتوجَّسُ الحذر .. ويغلِّفه بحفاوةٍ تشبه التحدي، وكان لا يحتاجُ إلى أكثر من نظراتي ليفهم أني وحيد، أجلسُ في هذا المقهى لأكتب درساً أو أنجز عملاً، هارباً من شقتي التي تُلبِسُني ثوب الوحدة، لاجئاً إلى من لا أعرفهم.. ولا يعرفونني.. (....)

كنتُ أتأمله وهو يُفرِغ أكياسَ السكّرِ في قهوته، ثم يحرِّكها ببرود، ويحمِلُ الكوب بين يديه، وتنقبض ملامحه وهو يرشِفُ رشفةً كبيرة، ثم يترك الفنجان المنهك، ويشعِلُ سيجارته ويعتدل.. ليكسِرَ نظرتي البلهاء !..

يبدو صلباً، وأنا فقدتُ هذه الحالة الفيزيائية منذ أتيت !، عينه اليسرى تنكسِرُ قليلاً لتترك في نظرته ازدواجاً ما.. يظهر أكثر وضوحاً إذا نظر إلى ما هو أدنى، مثلي تقريباً!، وسامته مُرْهَقَةٌ جداً، بذقنه التي لم تحُلَق منذ أيام، وخصلاتِ شعره الكثيف المتناثرة على جبينه، وشفتيه السمراوين من أثر التبغ !..

ذلك اليوم، شعرتُ أنَّ معركةَ النظراتِ ليست في صالحي، هَرَبَتُ من تحدِّيه، وتركتُ مكاني ذاك، وعُدْتُ في المساء التالي لأجده في نفسِ المكان، ونفسِ الهيئة التي تركتُهُ فيها البارحة، كأنه نام هنا!، شعرتُ تلك اللحظة أني بهيئتي الجديدة التي أتيتُ فيها، والطاولة الأخرى التي اخترتها أبعد من طاولة الأمس قليلاً، أبدو نشازاً في ثباتِ اللوحة !..

الفصل الرابع، ص 150 - 153

قول آخر..

يفوتني، في أثناء ما أكتب، أن أتذكر إلى أية درجة يمكن للقارئ أن يكون ملولاً. أنا نفسي، حين أقرأ، لا أتوقف عن حساب الصفحات المتبقية من الكتاب، مقارناً بين سماكتها وسماكة ما سبق أن قرأته منها. كأننا نرغب في الإسراع بوضع الكتاب جانباً والقول، بيننا وبين أنفسنا، بأن هذا كتاب آخر قرأناه. لا ينفي ذلك استغراقنا أحياناً في تلك المتعة التي تأتي بها القراءة، تلك التي لا يكف الاستعداد للملل عن ملازمتها. ثم إن الكتاب، أي كتاب، ليس ممتعاً كله. وإن شئت أن أكون أكثر صراحة أقول إن الكتاب لا يبلغ روعته إلا في صفحات قليلة، أو ربما في مقاطع قليلة.

الجلوس للقراءة، فعل الجلوس ذاته إلى طاولة أو على كنبة،متكوّن من ذلك المزيج المختلط من الاندفاع والانكفاء، من التهيوء لإطالة الجلوس والرغبة في القيام. لا لنفعل شيئاً غير القراءة، بل لنفعل لا شيء. كأن نتوجه إلى الشرفة مثلاً لننظر منها لغير هدف، أو أن نذهب إلى البرّاد لنأكل شيئاً مما فيه. ولا أعرف أي المقاطع هي التي يقرر عندها من يقرأ أن يقوم. هل هي الصعوبة التي تحتاج إلى تركيز لا طاقة لنا على توليده في تلك اللحظات؟ هل هي المقاطع التي تبدو فيها حركة الأحداث قد توقفت تماماً، إن كان الكتاب الذي نقرأه رواية؟ هل هي المقاطع الجميلة، تلك التي قال عنها الفرنسي رولاند بارت مرة بأنها هي التي تدفعه إلى إغلاق الكتاب للاحتفاظ بها للوقت الذي يحتاجه الاستمتاع بها.؟

يفوتني، في أثناء ما أكتب، أن أتذكر مللي، قارئاً. في أحيان أقول إن ما يشوّق هو السطحي، المتسارع الذي لا تحتاج قراءته إلى التفكير. المشوّق هو ذلك النوع من الكتابة التي لا تخفي شيئاً تحتها أو بين سطورها. أنا في كتابتي أؤثر التمهل على الإسراع. ذاك أنني أفكر أن كل جملة يجب أن تقول شيئاً هي بنفسها، وتقريباً دون مساعدة من الجملة التي سبقتها ومن تلك التي تلتها. هنا أراني أفرّق أو أفصل بين ما يريده القارئ وما يريده الكاتب. الملل يأتي الكاتب من الاسترخاء في الكتابة. من توقف ذلك الإلحاح الذي يحثّه، مع كل كلمة أو جملة، على أن يقول شيئاً يغبطه قوله. ما أحسبه توقف الكتابة ليس أن يضع الكاتب قلمه جانباً ويطوي أوراقه، بل أن يستمر في خط سطوره من دون أن يتردد أو يقلق أو يعارض نفسه ويشاكسها قبل أن ينزل القلم إلى الورقة.

للصعوبة نعم، للملل لا..

حسن داوود

ولا أستطيع إلا أن أكون كذلك. الجملة يجب أن تكتمل في رأسي مثل ثمرة قبل أن أكتبها. وهي، في تلك الثواني القليلة التي تسبق تحوّلها كلاماً مكتوباً، تمر بامتحانات لا أزعم أنها تتلقى علامات جيدة على الكثير من مكوناتها. إنها الأفضل بين أخريات وليس الاحتمال المطلق الوحيد الذي لا احتمال آخر سواه. أحياناً أراني أصيب ذلك التجلي الذي يقول عنه الشعراء إنه سمة كتابتهم كله. لكن ذلك نادر، وإذ يحصل لي أظل أتذكر، أو أتذكر سطره أو مقطعه، حتى بعد أن تنقضي سنوات على نشر الرواية.

أنا، ككاتب إذن، أكتب ما لا أحب أن أقرأه. لكنني، من ناحية أخرى، لا أضع نفسي في مكان القارئ ذاك. لا أقول مثلاً أنني هنا أمللته ويجب أن أفعل شيئاً لأسليه. أغلب الظن أن كتابتي هي لي وليست له. حين يقول ذلك كتّاب عن أنفسهم نميل إلى اتهامهم بالتبجح، لكن هذه أكثر مزاعمهم صحة. لا أقول إنني أمللت القارئ ويجب أن أفعل شيئاً لأعيده إليّ. هذه، إن فعلتها، تكون صناعة وليست كتابة. كُتّاب الروايات الأكثر مبيعاً هم الذين يفعلون ذلك. السينما التي تهجس بشباك التذاكر هي التي تفعل ذلك أيضاً بل هي، فوق ذلك، تجري الإحصاءات والدراسات حوله.

الكتابة شيء آخر أقول. إنها، وهذا قد يبدو مثقلاً بالغرور، أن أجيء بالقارئ، إليّ لا أن أذهب أنا إليه. يعجبني كثيراً أن يقول لي قارئ: أنت صعب لكنك لست مملاً.

كيف له أن يخفى وهو جارنا الأقرب؟ لقد شاء الله أن يطل علينا كل مساء أنيساً يبدد وحشة الظلام، وشاهداً أبدياً على ما يجري في عالمنا.

ما من عنصر من عناصر الطبيعة حظي في الأدب وخاصة في الشعر بالمكانة التي حظي بها القمر.

صادقه الشعراء الذين ألفوه في ليالي السهر، وفتنهم جمال ضوئه شديد الرفق بالأحاسيس، فدخل عالم الأدب منذ أن ظهر الأدب، ولم يُستنفد موضوعه حتى اليوم.

شغل العلماء منذ أن ظهر العلم، فكان السند الأول الذي ركن إليه الإنسان لاحتساب الوقت والزمن. ولا يزال موضع بحث ودراسة واستكشاف، حتى بعد أن وطأته قدم الإنسان، الأمر الذي شكل في حينه ذروة انتصار للعلم والحلم معاً!

فريق تحرير القافلة اقترب في ملف هذا العدد من القمر، شعراً وأدباً، وعلماً، في تفاصيلَ قد تخفى على الكثيرين.



القمر..

علم وأخبار وأشعار وسمر..

القمر في معتقدات الشعوب القديمة

عندما احتاج الإنسان للمرة الأولى إلى احتساب الزمن لم يجد معيناً له على ذلك أفضل من القمر. لم يكن سهلاً على الإنسان ملاحظة تحرك النجوم وموقع الشمس في قبة السماء، لكن ملاحظة اختفاء القمر، ثم ظهوره من جديد هلالاً، واتساع صفحته المضيئة شيئاً فشيئاً ليصير بدراً قبل تقلصه، كانت أبسط الأمور عند أولئك الذين وجهوا أبصارهم إلى السماء. فعدّوا الأيام، ولاحظوا انتظام هذه الظاهرة وتكررها كل 29 يوماً تقريباً.

وقد اشتُقّ تعبير التأريخ، وهو رصد الأيام والسنوات، من كلمة أرخو السامية القديمة، وهي اسم القمر في العصور السالفة. تضافر التقويم القمري، مع وضوح الرؤية شبه الدائمة بالعين المجردة، على فتح الباب واسعاً أمام دخول القمر في العادات والتقاليد، ففي ميزان التشاؤم والتفاؤل، يتفاءل العرب بالهلال الجديد، إلا هلال صفر، فيقولون عن مشاريع ينوونها: "إن مرّ صفر بخير"... ودخل الهلال في اللغة على أنه البداية، فيُقال "استهل ولايته بكذا وكذا ..." من الهلال.

L'abcdaire de la Lune d.R

▲ أثينا والقمر والبومة في رسم إغريقي

وأما البدر فيشبهون به البنت الجميلة "قمر أربعتش" أي مستديرة الوجه مثل قمر ليلة الرابع عشر من الشهر. ومع ذلك لا يرون في القمر فائدة أحياناً، إذ يقولون "أنت مثل القمر، بتونّس وما بتنفع"، أو "القمر بيونّس وما بيحميش".

ومن حب الناس للقمر، سموا أولادهم بأسمائه المختلفة: قمر وبدر وهلال، كما سموا أيضاً: شمس وشهاب ونجم ونجمة وثريا وسهيل وغيرها من أسماء الأجرام السماوية.

وكان لكل يوم عند العرب كوكبه فللإثنين القمر، وللثلاثاء المريخ، وللأربعاء عطارد... ونقلت شعوب أوروبا هذه المعتقدات، حتى أنهم سمّوا أيام الأسبوع بأسماء هذه الكواكب.

فالفرنسيون يسمون يوم الإثنين Lundi من لفظة Lune التي تعني القمر. وكذلك الإنجليز Monday من Moon، والألمان Mon-tag من Mund والإيطاليون Lunedi من Luna.

غير أن القمر لعب دوراً رمزياً أعمق من هذا عند الشعوب الوثنية القديمة. فقد كانت الشمس رمز الذكر المخصّب، أي الذي يبذر البذار في الأرض الزراعية، أما القمر، فهو الأنثى التي تتلقى البذار وتحمل وتثمر. ويلاحظ أن بعض اللغات، خاصة الأوروبية منها احتفظ بأنوثة القمر وذكورة الشمس حتى الآن، كما هو الحال في اللغة الفرنسية. أما الإنجليز فلا يزالون يحملون في لغتهم بعض آثار هذا المعتقد، إذ أن كلمة الزوج هي Husband، وكلمة زراعة هي Husbandury.

وفي مصر الفرعونية ارتبطت دورة القمر الشهرية بأسطورة أوزير وصراع الخير متمثلاً في حورس مع الشر متمثلاً في ست. فصارت مرحلة اكتمال القمر تمثل لحظة انتصار أوزير واستعادته العرش بمساعدة أربعة عشر يوماً قمرياً، وكأن كل يوم يمثّل شخصاً. لهذا، ارتبطت الدورة القمرية بتجدد القوى الملكية في مصر الفرعونية، باعتبارها في صراع مستمر مع الشر الذي يهدد البلاد. كما أن نصوص الأهرام الموجودة في مقابر ملوك الدولة القديمة تصف المتوفى بأنه «قمر» لضمان تجدد بعثه دورياً بلا نهاية.

ولم تبتعد القبائل الإفريقية كثيراً عن هذه الأفكار، ذلك أن كهّان القبائل الذين يمارسون السحر والشعوذة، لا بد لهم من التضحية إما بذبح معزة أو بهبة أرز أو ذرة أو زيت لجلب الخصب إلى القبيلة. لكن هذه الأضاحي لا بد وأن يكون موعدها بداية شهر قمري جديد لأن القمر هو رمز الخصب. وكثيرة هي الحكايات التي وصلتنا من الشعوب القديمة وأساطيرها حول القمر، منها ما يقول إن القمر يتحطم مرة كل شهر وأن النجوم هي حطام القمر القديم!.

وفي محاولة لتفسير البقع الداكنة على سطح القمر، تقول إحدى الأساطير إن القمر كان يلاحق الشمس بحبه لها حتى أغضبها، فلطخت وجهه المستدير بالرماد كي يدعها وشأنها. ومنذ ذلك الحين والقمر يحتفظ بتلك البقع السود !!

وفي واحد من المفاهيم الخرافية الطريفة أن القمر يساعد عروس المستقبل، إذ عليها أن تنظر إلى الهلال من منديل حريري وتقول "أيها الهلال أيها الهلال، انا أحييك أيها الهلال، أيها الهلال كن لطيفاً معي؛ إن كنت سأتزوج فأرني كم شهراً سأظل عازبة". وبقدر ما ترى من أهلّة من ظلال المنديل يكون عدد الشهور التي تبقى فيها عازبة!.

العرب والتقويم القمري

القمر في معتقدات العرب وتقاليدهم وعاداتهم وأدبهم، غير القمر في معتقدات الشعوب الأخرى. فالعرب في الإجمال يقطنون بلاداً حارة أو معتدلة المناخ. والليل عندهم سانحة جميلة للخروج تحت القبة داكنة اللون المرصعة بالقمر.

كان عرب شبه الجزيرة يعتمدون تقويماً قمرياً، غير أن العرب مثل كل الشعوب القديمة أيضاً لاحظوا أن المواعيد السنوية في تقويمهم القمري، لم تكن ثابتة في موقعها من السنة الشمسية. فالشهر الذي يصادف الصيف هذه السنة، يصادف الربيع بعد تسع سنوات، ثم الشتاء بعد تسع سنوات أخرى، وهكذا. وسبب هذا الانزلاق، هو أن السنة القمرية 354 يوماً، فيما تستغرق الأرض



L'abcdaire de la Lune d.R

▲ تقويم قمري يعود إلى سنة 245هـ.

لتدور دورة كاملة حول الشمس 365 يوماً و 5 ساعات و 48 دقيقة وبضع ثوان. وهذا يعني أن الشهر القمري "ينزلق" من الشتاء صوب الخريف فالصيف فالربيع، نحو 33 يوماً كل ثلاث سنوات. ويقلّ القرن الهجري (القمري) عن القرن الميلادي (الشمسي) نحو 3 سنوات. ولمعالجة هذا الأمر اتبعت الشعوب القديمة أساليب مختلفة. فمنهم من أبطل التقويم القمري واعتمد الشمسي، مثل الفراعنة الذين جعلوا سنتهم 360 يوماً (12 شهراً من 30 يوماً الشهر) زائدة 5 أيام أعياداً واحتفالات. كذلك اعتمد يوليوس قيصر، سنة 44 ق.م، السنة الشمسية، وجعلها 365 يوماً. وكانت بعض الشعوب القديمة تعمد إلى زيادة شهر كل ثلاث سنوات قمرية لتعود المواعيد القمرية إلى مكانها في السنة الشمسية.

ويسمى أسلوب زيادة شهر أو أيام إلى التقويم، لمنع إنزلاق المواعيد عن مواقعها في السنة الشمسية "الكبس" أو "الإنساء"، لأنهم يُنسِؤون الشهور، أي يؤجلونها، حين يضيفون في ما بينها شهراً.

ما يقوله العلم

قمرنا هو أكبر الأقمار في المجموعة الشمسية، يدور حول نفسه كل شهر تقريباً، وهي المدة نفسها التي يتطلبها ليدور حول الأرض في مدار شبه بيضاوي.

يبعد عن الأرض ما بين 406000 و 356000 كيلومتر حسب موقعه على المدار. والمحور الذي يدور به القمر على نفسه لا يسمح لنا برؤية غير 50 في المئة من سطحه، وأحياناً قليلة 59 في المئة. وهو ينزاح عن الأرض بنحو 3.82 سم كل يوم، ما يجعله يدور حول نفسه وحول الأرض ببطء متزايد...

وأظهرت الفحوص المخبرية التي أجريت على صخوره، أن تركيبة القمر المادية قد تمت بالقرب - أو في المكان نفسه - من المكان الذي تكونت فيه الأرض في النظام الشمسي.

"يشبه القمر كومة من الرمل لعب عليها أولادي" على حد قول أحد أفراد طاقم المركبة الفضائية "أبولو"، فلونه رمادي ومتبقع نتيجة ضربات النيازك والأجرام الكثيرة، ومليء بالهزمات وكأنه إنسان أصيب بالجدري. يبلغ قطر بعض الحفر عليه مئات الكيلومترات، ويعود معظمها، كما يعتقد علماء كثر إلى "فترة القصف الثقيل". أي إلى نحو أربعة مليارات سنة ولا تزال آثارها ظاهرة حتى اليوم، من دون أن تستطيع التحركات التكتونية أن تزيل آثارها. وبعض المرتفعات الطبشورية تمتد على سطح القمر إلى كيلومترات عدة، وبعض الجبال يصل ارتفاعها إلى حوالي عشرين ألف قدم مثل جبال أبنين Apennine. ولا يوجد للقمر غلاف جوي ليحميه من التأثيرات الكونية العديدة ومن حرارة الجو المتقلبة بين الليل والنهار.

كيف تكوّن؟

الفرضيات والنظريات العلمية حول تكوّن القمر عديدة ومتضاربة. إذ تقول نظرية "الالتقاط" إن القمر كان جرماً بعيداً في النظام الشمسي، تمكنت الأرض من جذبه وجعله يدور حولها في مداره الحالي.

أما افتراض "الحلقة" فيقوم على أن جسماً خارجياً تائهاً ضرب الأرض منذ حوالي 4.5 مليار سنة، عندما كانت حديثة التكوين فتطايرت فلذ أرضية في الفضاء مكونة حلقة أخذت مدارها حول الأرض مشكلّة في البداية أقماراً صغيرة، تكتلت لاحقاً لتُشكّل القمر.

من جهة أخرى، تقول نظرية "الانشقاق" أن الأرض الحديثة التكوين كانت تدور حول نفسها بسرعة تقارب الدورة الكاملة كل 2.5 ساعة، ما تسبب بتشكيل نتوء عند خط الاستواء. وأدى في وقت معين إلى انفصاله عن الأرض ومتابعة الدوران منفصلاً. ويعتقد العالم جورج داروين أن القطعة التي انفصلت عن الأرض كانت تقع في موقع المحيط الهادئ حالياً، بسبب شكل الفجوة التي يشكلها قاع هذا المحيط في الكرة الأرضية.

القمر والحياة على الأرض

للقمر آثار بالغة الأهمية على حياتنا الأرضية، وذلك من خلال الدور الذي يلعبه في حركة البحار والمحيطات وانعكاس ذلك كله على المناخ الأرضي.

فالقمر يجذب مياه البحار والمحيطات صوبه، فترتفع في وسطها مما يؤدي إلى تراجعها عن الشواطئ وهذا ما نسميه "الجزر"، وعندما ينسحب القمر إلى الجهة الأخرى من الأرض، يكون قد أفلت هذه المياه من جاذبيته فتعود لتتمدد إذا جاز التعبير - وهذا ما نسميه "المد".

وعندما يكون القمر على خط مستقيم مع الشمس والأرض، مرتين في الشهر، ينتج عن انسحابه ما يسمى موج الربيع القوي. وعندما تكون الشمس والقمر بزاوية مستقيمة مع الأرض يكون لدينا هلال نصفي، وهو ما يُحدث الجزر المحاقي في الربع الأول والثالث من عمر القمر.

هذا التحريك القمري للمياه هو المحدد الأول لنوعية الحياة على شطآن البحار وحتى في أعماقها. فبعض الحيوانات تغير لونها حسب دورة القمر. وبعض الأسماك تضع بيوضها بتلازم دقيق مع شكل القمر، ومعظمها ينجو من شباك الصيادين عندما يكون القمر كاملاً..



القمر.. المد والجزر

وقد حاول العلم ولا يزال ربط السلوك الإنساني بالقمر، وبشكل خاص حالات الجنون. حتى أن كلمة "Lunatic" الإنجليزية المشتقة من أصل لاتيني "Luna" تستخدم للإشارة إلى الشخص المجنون. كما أن الفرنسيين يستعملون منذ القرن الرابع عشر التعبير نفسه للإشارة إلى الجنون.

وقد كان الطبيب اليوناني هيبوقراطيس أول من ربط في القرن الرابع ق.م. بين "الجنون ومستوى الرطوبة في الدماغ". ولأن اليونانيين القدامى ومن بعدهم الرومان تكهنوا بوجود تأثير لجاذبية القمر على مستويات الرطوبة، تعزز الربط بين الجنون والقمر، خاصة عندما يكون بدراً.

وبعدما أهملت هذه الفكرة لقرون عدة على الصعيد العلمي، عادت مؤخراً إلى الظهور، وظهرت نظريات حديثة تكاد تكون أصداء نظرية هيبقراطيس. فقد تزايد في السنوات الأخيرة الاهتمام بتأثير القمر على تطور الأعضاء الحية. وعلم "البيولوجيا الزمنية" (CHRONOBIOLOGY) يدرس تأثير إيقاعات القمر على هذه الأعضاء. ويسأل أحد العلماء: "لم لا؟ فأجسامنا تتكون من الماء بمعظمها، فلماذا لا تكون تحت تأثير القمر؟ ربما كان في دمائنا مد وجزر"، كذلك في عواطفنا. ألم يقل شكسبير "إن القمر يجعل الإنسان مجنوناً؟"

الإنسان على سطح القمر

"هيوستن، هنا قاعدة السكون، النسر قد هبط" هذه الجملة كانت أول كلام إنساني يصلنا من سطح القمر. كان ذلك في 20 يوليو 1969م عندما نجحت المركبة الفضائية أبولو 11 في إيصال أول بشري إلى القمر وسط متابعة لم يسبق لها مثيل استقطبت أنظار العالم وحبست أنفاسه من أقصاه إلى أقصاه.

▲ أول إنسان على سطح القمر

أقلعت أبولو من الأرض التي تدور بسرعة ألف ميل في الساعة، فتوجب الدوران حول الأرض بسرعة 18000 ميل في الساعة، ومن ثم تسريع الدوران حتى 25000 ميل للخروج من مدار الأرض، ومن ثم السفر بسرعة 2000 ميل بالنسبة إلى الأرض للوصول إلى القمر وإنزال سفينة تحمل على متنها رائدي الفضاء نيل أرمسترونغ وأدوين الدرين، اللذين مشيا على سطحه، وأخذا عينات من تربته قبل الإقلاع إلى المدار القمري، ثم التحرر منه والعودة بسلام إلى الأرض، الأمر الذي شكل ذروة انتصار العقل العلمي آنذاك.

وتوالت رحلات أبولو بعد ذلك حتى العام 1972م. وبلغ مجموعها سبع رحلات تكللت بالنجاح ما عدا "أبولو 13" التي يكمن نجاحها في انقاذ روادها والعودة بهم سالمين إلى الأرض في منتصف الطريق بعد عطل خطير طرأ على مركبتهم. وبذلك يكون عدد رواد الفضاء الذين مشوا على سطح القمر 12 شخصاً، عادوا إلينا بحوالي 382 كيلوغراماً من صخور القمر وأتربته، إضافة إلى ما جاءت به بعض المركبات السوفياتية غير المأهولة.

منذ الآن ... ترقب الانفجار القمري

"أكبر اصطدام كوني في تاريخ البشرية"، "أكبر انفجار في الألفية الثالثة" "اصطدام العمالقة في الفضاء". مثل هذه العناوين ستتصدر صحف العالم في التاسع من آب (أغسطس) سنة 2039م، للحديث عن اصطدام النيزك المرقم "N 10 1999" بسطح القمر بعيد الساعة الثانية فجراً بتوقيت غرينتش.

فالرصد الفضائي وحسابات العلماء سمحت منذ اليوم بتوقع هذا الاصطدام الأكبر من نوعه الذي يمكن للبشرية أن ترصده، إذ أن النيزك المذكور الذي يبلغ قطره نحو كيلومتر، سيصطدم بسطح القمر بسرعة 15 كيلومتراً في الثانية، متسبباً في انفجار يعادل 38 ألف ميغا طن من الديناميت. أي نحو مليوني مرة قوة انفجار قنبلة هيروشيما.

وسيتمكَن سكان أوروبا وآسيا وافريقيا من مراقبة الحدث بالعين المجردة. ويحتمل أن تنبعث من الانفجار قوة ضوئية مدة ثانية واحدة، تعادل ضوء سطح القمر بأسره، وسينجم من هذا الاصطدام فوهة قمرية (تشبه الفوهات البركانية) قطرها بين 15 و 20 كيلومتراً.

القمر بالأرقام

- **عمره:** 4.56 مليار سنة.
- **متوسط قطره:** 3476 كيلومتراً.
- **وزن كتلته:** 7.35 × 10^{22} كيلوغراماً.
- **حجمه:** 2.2 × 10^{19} متراً مكعباً.
- **كثافته:** 3.34 كيلو غرام في المتر المكعب.
- **المعدل الوسطي للحرارة على سطحه:** -150° ليلاً و +150° نهاراً. (درجة مئوية)
- **متوسط بعده عن الأرض:** 304000 كيلومتراً.
- **جاذبيته:** 1.62م في الثانية (سدس جاذبية الأرض).

كوربيس

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾

القمر في القرآن الكريم نوراً وقسماً..

وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة عن الكون والسماء والنجوم، وكان للقمر نصيبٌ وافر منها، الأمر الذي يؤكد على عظمته وارتباط الإنسان به. فقد أقسم به الخالق سبحانه ثلاث مرات، وسميت سورة من القرآن الكريم باسمه، وورد ذكره 27 مرة بلفظ القمر، ومرة بلفظ الأهلة. ولما كان بعض البشر يعبدون القمر كما عبدوا بعض النجوم والكواكب، لما كان الإنسان يعتقده من تأثيرها عليه، أبطل القرآن هذه العبادة، لأن هذه الأجرام السماوية ما هي إلاّ من مخلوقات الله ومسخّرة من قبله، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (فصلت/37).

والقمر يتحرك حول الأرض بين ثوابت من النجوم يسمى كل منها منزلاً من منازل القمر، وعلى ذلك فإن منازله 28 بعد الليالي التي يُرى فيها، قال تعالى:

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (يس/39).

ويؤكد القرآن الكريم على وظيفة الدورة القمرية حول الأرض من حيث اعتماد الإنسان عليها لاحتساب الزمن ووضع التقاويم:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (يونس/5).

وتتضمن هذه الآية إشارة دقيقة إلى طبيعة كل من الشمس والقمر وتفرق بينهما كون الشمس ذاتية الإضاءة، في حين أن القمر نور، والنور هو شعاع الضوء. والعالم صار يعرف أن الشمس تصدر نورها بنفسها عن طريق الاحتراق، أما القمر فهو يعكس أشعة الشمس الساقطة عليه. ويتأكد المعنى نفسه في آيات أخرى مثل قوله تعالى:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ (الفرقان/61).

أو قوله سبحانه:

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ (نوح/16).

وورد ذكر حركة القمر في مداره وديمومتها وانتظامها في آيات بينات عديدة منها:

﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس/40).

وهناك الآية الكريمة:

﴿وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (إبراهيم/33).

وإضافة إلى ديمومة الحركة القمرية والشمسية، تتضمن هذه الآية توكيداً على أن القمر والشمس مسخران لخدمة الإنسان وفائدته. والواقع أن تسخير القمر حظي بأكبر عدد من الآيات التي ورد فيها ذكر القمر، نذكر منها على سبيل المثال:

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (الرعد/2).

ومنها:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (النحل/12).

وأَقسَمَ الخالق سبحانه بالقمر في آيات ثلاث:

﴿كَلاَّ وَالْقَمَرِ﴾ (المدثر/32).

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ (الانشقاق/18، 19).

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾ (الشمس/1، 2).

والهلال رمزاً..

ولأن المسلمين يلتمسون هلال شهر رمضان المبارك لبدء الصوم، وهلال شهر شوّال لنهايته وحلول عيد الفطر، وأيضاً هلال ذي الحجة حيث تبنى عليه مناسك الحج وعيد الأضحى، صار الهلال رمزاً رمضانياً وإسلامياً. وأول ما لدينا من أدلة أثرية عليه، نقود نُقشت في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، إذ كان المسلمون يريدون إحلال نقود في التداول لا تحمل رموز دول أخرى، مثل بيزنطة وفارس الساسانية التي كانت قد بادت بعد القادسية، لكن نقودها ظلت متداولة زمناً.

وقد ظهر رمز الهلال في العصور الإسلامية الأولى، وبصحبته نجمة خماسية سنة 75 للهجرة. واعتمده العباسيون في نقودهم رمزاً أيضاً بعد الأمويين. كذلك ظهر الهلال في نقوش مسجد الصخرة في القدس الشريف سنة 72 للهجرة، ثم في نقوش تاريخية من عهد الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله (أوائل القرن الهجري الخامس)، وبقي كذلك حتى العصر العثماني. واستخدم الهلال بكثرة في الأشكال الهندسية التي تميز بها فن العمارة الإسلامية فارتفع فوق المآذن وقباب المساجد.

أما الدول الإسلامية فلم تجعل الهلال يتوسط علمها، حتى ظهر على علم العثمانيين الرسمي في القرنين الثاني والثالث عشر الميلادي. وفي عهد السلطان سليم الثالث العثماني صار علَمه أحمر اللون يتوسطه هلال ونجمة.



وتبعت العثمانيين تونس في عهد حسين الأول (1824 – 1835م). ورسمت مصر هلالاً أبيض على علمها الأحمر في العهد العثماني. لكن الملكية في عهد فؤاد الأول بدّلت العلم فجعلته أخضر وفي وسطه هلال وثلاث نجوم. واعتمدت باكستان علم الجامعة الإسلامية سنة 1947م، وعليه هلال أبيض، ثم ليبيا وماليزيا، وأخيراً الجزائر.

وفي الحرب بين روسيا وتركيا في الفترة 1876 – 1878م أعلنت الإمبراطورية العثمانية، على الرغم من أنها كانت قد انضمت إلى اتفاقيات جنيف 1864م من دون أي تحفظات، أنها ستستخدم الهلال الأحمر شارة لها على سيارات الإسعاف التابعة لها مع الاستمرار في احترام شارة الصليب الأحمر كوسيلة حماية لعربات الإسعاف الخاصة بأعدائها. وهكذا بدأ استخدام الهلال الأحمر عملياً في الإمبراطورية العثمانية ووافق المؤتمر الدبلوماسي لعام 1929م، بعد مناقشات مستفيضة، على الاعتراف بشارة الهلال الأحمر التي استخدمت منذ ذلك الوقت من قبل مصر والجمهورية التركية الوليدة. كما وافق المؤتمر أيضاً على شارة الأسد والشمس الأحمرين التي كانت مستخدمة في فارس. وحتى يبطل المؤتمر أية مطالب جديدة في المستقبل، أكد أنه لن يعترف بعد ذلك بشارات جديدة. ومنذ ذلك الوقت ازداد عدد الدول التي اعتمدت الهلال الأحمر شارة لها. وقررت إيران في عام 1980م التوقف عن استخدام شارة الأسد والشمس الأحمرين واستخدام الهلال الأحمر بدلاً منها. وقوبلت بالرفض اقتراحات من دول أخرى لاستخدام شارات بديلة.

أقمار يضيئها الشعر، أم أشعار يضيئها القمر؟

الدكتور سعد البازعي



من يقرأ كتاب نازك الملائكة "قضايا الشعر المعاصر" تستوقفه الملاحظة القائلة إن الشعراء العرب المحدثين لم يعودوا يتحدثون عن "البدر" كما كان الحال في الماضي، وأنهم يتحدثون بدلاً عن ذلك عن القمر. والذي يركز الانتباه في القصائد اختباراً لصدقية هذه الملاحظة لا يجد ما يخدشها. ولعل مما يلفت النظر أن الشاعر المنافس لنازك حين أبدت تلك الملاحظة اسمه الأول "بدر"، بدر شاكر السياب، الذي يتحدث عن القمر وليس عن البدر في واحدة من أشهر الصور في الشعر العربي الحديث تضمنتها قصيدته المهمة "أنشودة المطر":

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر

المهم هو أن الصورة السيابية تؤكد غياب الدلالة التقليدية الغزلية التي تقوم على استخدام البدر كرمز للحبيب، فالقمر هنا، مع أنه جزء من الصورة العاشقة، فإنه مصدر ضوء راحل عن شرفتين تُشبه بهما عينا الحبيبة. إنه القمر في لحظة نأي وضمور ليمسي، كما في الصورة القرآنية العظيمة، "كالعرجون القديم"، وعلى نحو يذكر بالصورة التي رسمها عمر بن أبي ربيعة في قصيدته الشهيرة التي مطلعها "أمن آل نعم أنت غادٍ فمبكر" حين روى قصة تحينه فرصة اللقاء بامرأة يهواها فيضطره ذلك إلى مجيء الليل وانتظار نوم الناس حوله:

فلما فقدت الصوت منهم وأُطفئت
مصابيح شُبت في العشاء وأنورُ
وغاب قمير كنت أرجو غيوبه،
وروَّح رعيان، ونوَّم سمر

فالقمر المصغر هنا ليس صورة للحبيبة وإنما هو عدو اللقاء بها إذ يهدد بهتك ستره، مما يؤكد أن القمر رمز متعدد الوجوه في الشعر العربي، وأن التعدد وغنى الصور الشعرية الناتج عن ذلك التعدد قرين بالموهبة الشعرية في نهاية المطاف، الموهبة التي تأبى الإذعان للتكرار والألفة، حتى وإن جاء القمر بدراً لا عرجوناً قديماً.

في عصور الشعر العربي المختلفة تكرر القمر في صور شتى يمكن أن تكون شأن صور الشمس أو البحر أو غيرها من عناصر الطبيعة والكون المحيط، بل وصور أشياء لا تحصى غير هذه - مسباراً لتطور الرؤية الشعرية من ناحية، ولقوتها وضعفها من ناحية أخرى. فمن الذي يعرف الشعر العربي وينسى تشبيه ابن الرومي لرقاقة الخبز، أو قطعة العجينة، في يد الخباز، حين يشبهها بالقمر، في تحدٍ شامخ لتاريخ التسامي الرومانسي والأرستقراطي في تصوير رمز مثل القمر؟ وحين نأتي إلى شعر الحداثة، من سينسى ديوان محمد الماغوط، ذلك الشاعر المتصعلك الذي لا يقل شقاءً عن ابن الرومي، "حزن في ضوء القمر"، الديوان الذي يحمل في ثنايا قصيدته الأولى، حاملة العنوان نفسه، ما يخدش النعومة والصفاء الرومانسي التي يوحي بهما العنوان، كما في مخاطبته دمشق:

أيتها العشيقة المتغضنة
ذات الجسد المغطى بالسعال والجواهر
أنتِ لي
هذا الحنين لك يا حقودة!"

ويتصل بانهيار الصورة الرومانسية ما رسمه نزار قباني في قصيدته الشهيرة "خبز وحشيش وقمر" حيث يغدو صديق العشاق الفضي رمزاً لانهيار الإنسان العربي بما فيه من اتكالية وهزيمة وأحلام ساذجة في أعقاب 1967م.

حين يستعرض القارئ صور القمر في الشعر العربي قد يلحظ التنقلات سواء في الدلالة المباشرة أو الإيحاء، لكن ما سيلحظه من اختلاف سيكون ضمن الثقافة الواحدة في نهاية المطاف، أي أنه لن يكون مثل ما سيتبين لو أن صور القمر في الشعر العربي وضعت إلى جانب صور شعرية من ثقافة مغايرة. هنا ستتجلى أقمار أخرى كأنها بعض أقمار زحل الكثيرة، أقمار لا شأن لها بوجه الحبيبة، أو حتى بالمجيء إليها والرحيل عنها، أو بالوطن القاسي على أبنائه أو بالهزائم السياسية. في معظم عصور الشعر الإنجليزي مثلاً يفاجأ القارئ مثلاً بأن القمر يرد في صيغة المؤنث، وهو وإن ارتبط في بعض القصائد بالعشق فإنه يرد بعيداً عن التشبيهات أو الأجواء الرومانسية التي اعتدنا عليها في الشعر العربي، كما في بيت ابن زريق:

استودع الله في بغداد لي قمراً
بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه

فالشاعر الإنجليزي السير فيليب سيدني Sidney يكتب قصيدة في القرن السادس عشر عنوانها "بأي خطى حزينة أيها القمر" (With how sad steps, O moon) يتساءل فيها عن أسباب كآبة القمر كما يوحي بها ضعف ضوئه وعما إذا كان ذلك ناتجاً عن أن القمر عاشق، وأن في السماء عشقاً مماثلاً لنوع العشق القاسي المتاح على الأرض، إلى نهاية القصيدة المنظومة على شكل السوناتة (sonnet) والتي تتيح للشاعر بث شكوى حبه من خلال المقارنة.

لكن صورة القمر الذكوري العاشق ليست أبرز ما نجد من أمثلة في الشعر الإنجليزي، وهي كثيرة. فهناك أمثلة تأخذ القمر إلى رحاب التصوير الرمزي المعقد، كما في رائعة الرومانسي كوليرج Coleridge "أغنية البحار العجوز" Rime of the Ancient Mariner التي تروي قصة مجموعة من البحارة يتيهون في البحر ويرتكب قائدهم جريمة قتل تودي بحياة طائر بريء فيحل به عقاب القوى الخارقة في البحر، ويستعمل الشاعر القمر والشمس ليرمزا إلى تغير أحوال الرحلة فيمثّل القمر رمزاً للأمن والطمأنينة بينما ترمز الشمس لعكس ذلك، وإن لم يكونا دائماً على ما يوحي به التقسيم هنا من ثبات الدلالة.

في صورة مغايرة للشاعر الإيرلندي وليم ييتس (توفي عام 1939م) يبدو القمر رمزاً للزمن، وذلك في قصيدة بعنوان "لعنة آدم" يتحدث فيها الشاعر عما حل بالإنسان منذ بدء حياته على الأرض من معاناة جعلت كل شيء بدءاً بالشعر وانتهاءً بالعشق لا يتأتى إلى بعد نضال، وبالطبع فإن ما يبرز هنا هو حرمان العشاق الذي يؤدي إلى بروز القمر، في نهاية القصيدة، بوصفه صورة للزمن المستحيل:

جلسنا صامتين حين ذكر الحب
رأينا جمرات النهار الأخيرة تذوي
وفي زرقة السماء المخضرة الراعشة
ثم قمر متعب كما لو كان صدفة
غسلتها مياه الزمن إذ ترتفع وتهبط
حول النجوم وتتكسر أياماً وسنين

وبعد، هل نبالغ لو قلنا إن صور القمر إذ ترتفع وتهبط عبر القصائد والعصور لا تحمل تفاوت الإبداع ومتغيرات الزمن فحسب، وإنما أيضاً اختلافات الثقافة وغنى الرؤية الإنسانية في نهاية المطاف؟ وهل هو القمر يضيء اختلافات الشعر والثقافة؟ أم الشعر والثقافة يضيئان اختلافات القمر؟

في الشعر العربي

حظي القمر بمكانة كبيرة في آداب العالم وفنونه المختلفة. ولكنه لم يحظَ في أي أدب بالمكانة التي نالها في الشعر العربي، فمنذ العصر الجاهلي، لم يغب القمر عن قصائد العرب، علماً بأن مواضيع الطبيعة والغزل كانت قليلة مقارنة بالفخر والحماسة والمدح والهجاء والرثاء. وقد لجأوا إلى الوصف، لكنه بقيٍ في إطار مادي، ولم يرق إلى الصورة الخيالية التي حفل بها لاحقاً الشعر العربي. عُذرهم في ذلك أن مجتمعهم لم يساعدهم على التأمل الطويل وربط الأفكار وفسح آفاق الخيال، لاضطراب حياتهم برحيل مستمر. ولكن ما إن بدأت الطمأنينة والاستقرار يتوافران لهم، حتى عوّضوا ما فاتهم من مشاعر في قصائدهم، بخاصة في الوصف والغزل. واللافت أن الإنسان الجاهلي كان شديد الشغف بذكر محاسن المرأة، إلا أنه نادراً ما كان يشبِّهها بالقمر أو بالبدر، فهذان كانا لوصف الرجل في الشهرة والسناء، أما المرأة فالشمس أحلى الأوصاف لوجهها.

أما في العصر العباسي ، فلم يغب القمر عن قصائد الشعراء تشبيهاً أو استعارة أو إفراطاً في العاطفة أو اعتبار الحبيب قمراً..

وإذا كان صعباً أو مستحيلاً أن يَخفى القمر في قصيدة عمر ابن أبي ربيعة، فهو يُفتقد في قصيدة أبي فراس الحمداني الذي عاد إلى أجداده الجاهليين مستعيراً منهم مكانة القمر في وصف الرجل وشهرته وسناه، إذ تباهى حين بلغه أن الروم قالوا "ما أسرنا أحداً لم نسلب ثيابه وسلاحه غير أبي فراس"، مبدعاً قصيدته الشهيرة "أراك عصيَّ الدمع"، ليبلغ الفخر ذروته فيها، بقوله:

سيذكرني قومي إذا جد جدهم
وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدر

وحتى أبو العلاء المعري، الشاعر الضرير كان له مع القمر، موعدٌ في قصيدته عن الموت المسلط على الناس، فقال في شكّهم أحياناً في حتميته:

وقد كذبوا حتى على الشمس أنها
تهانُ، إذا حان الشروق، وتُضرَبُ
كأن هلالاً لاح للطعن فيهمُ
حناه الردى، وهو السنان المجرَّبُ

وبانتقال العرب إلى الأندلس، كان القمر بين حوائجهم، وقد زينوا به طبيعة تلك البقعة النضرة، وحل ضيفاً عزيزاً على أشعارهم وموشحاتهم. فمن سجنه مثلاً، لم ينسَ ابن زيدون القمر. جعله هو نفسه وقد خسفَ، وذلك في قصيدته إلى أبي الحزم، بقوله:

هل الرياح بنجم الأرض عاصفةٌ
أم الكسوف لغير الشمس والقمرِ؟

ثم راح القمر يطل من الموشحات الأندلسية طرِباً فرِحاً، ومن ذلك قصيدة عبادة، ومطلعها "بدرُ تمّ، شمس ضحى غصن نقا، مسك شمّ"، ومنها أيضاً ما مدح به ابن زمرك السلطان ابن الأحمر، مهنئاً إياه بشفائه:

والزُهرُ في روضة السماء
كالزَّهرِ قد راق بابتسامْ
والصبح مستشرق اللواء
والبدر يستقبل التمام

وبعدما ساد عصرِ الانحطاط لنحو خمسة قرون، انبلج فجر النهضة والانبعاث، كاشحاً الغيوم عن سماء الأدب واللغة، لتظهر شمسها وأقمارها.. ويطول السرد والأمثلة إذا شئنا مطاردة القمر في شعر هؤلاء، فنكتفي ببعض النماذج كقول سعيد عقل في رائعته "رندلى" :

ألعينيكِ تأنٍّ وخطَرْ
يفرش الضوءَ على التلّ القمر؟

وقد جعله يُطل كُرمى لعيني الجميلة الحبيبة، ليضحك للغصن ويرتاح إلى ضفة النهر "رفيقاً بالحجر"، أو كقول الأخطل

الصغير في "عيد الحبيب" أن "النور والعطر" :

تجاذباه الهوى، بوركت من فلك
مقسم الوجه بين الشمس والقمر

فأي حبيب لا يتمنى أن يكون وجهه الشمس والقمر معاً؟.. أو كاعتبار نزار قباني نفسه وحبيبته في "حكاية نحن" :

فعند كل وردة خبرٌ
إن مرة سُئلتِ، قولي:
نحن دَوّرْنا القمر

فقد تماهى وإياها معه، فأي كلام بعد يمكن أن يقال؟.

الهلال.. أوصاف وصفات

- شُبِّه الهلال بقُلامة ظفر (ابن المعتز):

وَلاحَ ضوءُ هَلالٍ كادَ يفضحنا
مِثلَ القلامةِ قد قُصّتْ من الظِّفْرِ

- وشُبِّهَ بحرف نون ذهبي خطّه خطّاط ماهر (أبو العلاء المعرّي):

ولاحَ هلالٌ مِثلُ نونٍ أجادَها
بِجَاري النّضارِ الكاتبُ ابن هلالِ

- وبشَعيرة السكَين (كشاجم):

أهلاً وسهلاً بالهلالِ بدا لعينِ المبصر
كَشَعيرةٍ من فضةٍ قد رُكّبتْ في خنجَرِ

- وَبِقَوْسِ رام (أبو عاصم البصري):

رأيتُ الهلالَ وقد حلّقتْ
نجومُ الثريّا لكي تلحقَهْ
فشبّهتهُ وهو في إثرها
وبينهما الزهرةُ المشرقَةْ
بقوسٍ لرام رأى طائراً
فأرسَلَ في إثره بُندُقَهْ

- وبمنجل حاصدٍ شهبَ الدّجى (أحد الشعراء):

انظر إلى حُسْنِ هلالٍ بَدَا
يُذهبُ مِنْ أنوارِه الحندسا
كَمِنجلٍ قد صِيغَ من عسجدٍ
يحصُدُ من شُهُبِ الدّجى نَرجسَا

- وبدُملوجٍ أو سوار (الخالدي):

وهلالٍ يلوحُ في ساعِدِ الغَرْبِ
كدملوجِ فضّةٍ أو سوارِ

- وشُبّه أيضاً بصولجان في يدي ملكٍ (ابن وكيع):

وَجَدَّ في أَثَرِ الجوزاءِ يَطْلبها
في الجوِّ ركضَ هلالٍ دائم الطلبِ
كصولجانِ لُجَينٍ في يديٍّ ملك
أدناه من كرةٍ صيغَتْ من الذّهبِ

- وشُبّه بإكليل ملك (أبو الفرج الوأواءِ):

وكأن الهلال تحت الثريّا
ملك فوقَ رأسِهِ إكليلُ

- ومن الصور البديعة التي تحمل حركةَ الامتلاء البطيء تشبيه الهلال بمرآةٍ من ذهب مستترة (العسكري):

وكأنَّ الهلالَ مرآةُ تبرٍ
تنجلي كلّ ليلةٍ إصبعينِ

- وفي صورة مركّبة شُبَّه كحَرْفِ كأسٍ بلوري، وبدرِهم فوق دينار أكبر منه حجماً (ظافر الحداد):

كَحَرْفِ جامٍ من البلّور قابَلَه
ضوءٌ وأخفى الدّجى إشراقَ سائرِهِ
أو دِرهمٍ فوق دينارٍ تجلَّله
علواً فضاق عن استيعاب آخرِهِ

- وشبّه أيضاً بنصف سوار (ابن الرومي):

وكأنَّ الهلالَ نصفُ سوار
والثريا كفٌّ تُشير إليهِ

- وبزورق أَثقلَتْه حمولته (ابن المعتزّ):

وانظر إليه كزورقٍ من فضّةٍ
قد أَثقلَتْهُ حمولةٌ من عنبرِ

- ويُقال إنَّ أحداً لم يصف امتلاءَ نِصفه كما وصفه ابن المعتزّ، ويعتبر تشبيهه الهلاَلَ بمحرِقةِ العطر من التشبيهات النادرة:

ما ذُقتُ طعمَ النومَ لو تدري
لأنَّ أحشائي على جَمْرِ
في قمرٍ مُسْتَرَقٍ نِصفُه
كَأنّه مُحرِقَةُ العِطْرِ

البدر.. في لغة التشبيه

شُبِّه البدر بالدِرهم وبالروضة وبخوذة من فضة وبوردة بيضاء وبكأس من فضة. وكلّ ذلك في لوحات شعرية رائعة. وهذه باقة من أبياتٍ قيلت في وصف البدر.

- عبد اللّه الموصلي الكاتب:

فكأنَّ البدرَ التمامَ عروسٌ
وكأنَّ النجومَ مُنتقباتُ

- ابن المعتز:

قمرٌ بدا لك مُشرقاً في ليلِهِ
حَسَر الدّجى أذيالَهُ عن ذيلِهِ
خُلِعَتْ على الآفاقِ من أنوارِهِ
خِلَعُ البياضِ فأومَضَتْ في ليلِهِ
وإذا تقدّم في النجوم حسبتَهُ
مَلكاً تَسيرُ مواكبٌ من حولِهِ

- أحدُ الشعراءِ:

والبدرُ في أفق السماءِ كَدِرهم
ملقىً على ديباجةٍ زرقاء

- الشريف العقيلي:

والبدرُ في كبدِ السماءِ كَوَردةٍ
بيضاءَ تضحك في رياض بنفسجِ

ظهور من تحت السحاب

- ويروى أنَّ شرف الدين ابن الوزير عَون الدين نظر ليلة إلى القمر يدخل تحت السحاب تارة وينكشف تارة، فقال لمن حَضَر من الأدباء لِيقُلْ كل منكم في ذلك شعراً، فقال الأديب مُفلح:

كـأنّمـا البـدرُ حيـنَ يبـدو
لنـا ويَسْتـحجـبُ السّـحابـا
خريـدةٌ مـن بنـي هـلالٍ
لاثَتْه عـن وجهِها نقـابـا

- وقال ابن عون الدين:

إذا تطلّع هذا البدرُ من فرج
من السحاب وغارتْ حولَه الشُهُبُ
تخالُهُ في رقيق من مَلاءته
خرقـاءَ تَسفِرُ أحيانـاً وتنتقِبُ

- وقال الأكرم من بني هبيرة:

وكأنَّ هذا البدرُ حيثُ تظُلُّهُ
سحُبٌ فَيُخفَى تارةً ويَؤوبُ
حسناءُ تبدو من خلالِ سُجوفِها
طوراً وَننظُرُ نحوَها فتغيبُ

- وكان عبد الملك بن إدريس جالساً مع المنصور أبي عامر والبدرُ يظهرُ تارةً ويخفى بالسحاب تارّة، فقالَ:

أرى بدرَ السماءِ يلوحُ حيناً
فيبدو ثمّ يلتحفُ السحابا
وذاك لأنّه لما تبدّى
وأبصَرَ وجهَكَ استحيا وغابا

خسوف وصور:

- قال أحد الشعراء:

انظر إلى البدرِ في (حال) الكسوف بدا
مستسلماً لقضاءِ اللّهِ والقَدَرِ
كأنّه وجهُ معشوق أدَلّ على
عُشّاقِهِ فابتلاه اللّه بالشعرِ

- وقال آخر:

والبدرُ كالمرآة غيّر صَقْلَها
عَبَثُ العذارى فيه بالأنفاسِ
والليلُ ملتبسٌ بَضوءِ صباحه
مثلَ التباسِ النَقْسِ بالقرطَاسِ

المُحاق:

- قال سِعيد المرزباني:

والبدرُ في كبدِ السماءِ قدِ انطوى
طرفاهِ حتى كاد مثل الزّورقِ
وتراه من تحتِ المُحاق كأنّما
غَرَقَ الجميعُ وبعضُهُ لم يغرقِ

- وقال آخر في مُحاق الشهر:

لَقَدْ سَرَّني أنَّ الهلالَ غُدَيّةً
بدا وهو مَحقُورُ الخيالِ دقيقُ
طواه مرورُ الشهرِ حتى كأنَّه
عِنانٌ لَوَاهُ باليدينِ رَفيقُ

الجميل قبيحاً!

على الرَّغم من تصوير القمر تصويراً بديعاً، إلاَّ أنه لم ينجُ من الهجاء والذم، فالعرب تقول في ذم الهلال إذا رأته؛ "لا مرحبا بِحُجين، مُحِلُّ الدَّينِ، ومُقرِّبُ الحِين". وقالوا: في القمر عيوبٌ عديدة: لونه لون الأبرص، ووجهُه وجه المجذوم، يحلّ الدَّين ويُعجِّل كراء السَكن، ويُنهِكُ الأبدان، ويُخلقُ الكتّان، وَيَنُمُّ على العاشِق، ويفضح السارق. وهذه بعض الأبياتِ في ذلك.




كوربيس

▲ صاروخ في عين القمر من الفلم "رحلة إلى القمر" للمخرج جورج ميليه

- يقول ابن المعتز:

يا سارقَ الأنوارِ من شمسِ الضُحى
يا مُثكلي طيبَ الكَرَى ومُنغِّصي
أمّا ضياءُ الشمسِ فيكَ فَنَاقِصٌ
وأرى حَرارَةَ حَرِّها لم تنقُصِ
لم يَظفرِ التشبيهُ منك بطائلٍ
مُتسلِّخٌ بَهَقاً كجلدِ الأبرصِ

- وقال علي بن سعيد:

لَبَذْلُ وَجهي إلى لئيم
أمَرُّ من وَقْفَةِ الوداعِ
فالبدرُ في وجهِه كدوحٌ
حين اجتَدى الشمسَ في شعاعِ

- وقال ابن الرومي:

لو أرادَ الأديبُ أن يهجوَ البدرَ
رَماه بالخطّةِ الشَنْعاءِ
قالَ يا بدرُ أنتَ تَغدُرُ بالساري
وتُغري بِزَورةِ الحسناءِ
كَلَفٌ في أديم وجهِك يحكي
نَمَشا فوقَ وجنةٍ بَرصاءِ
يَعتريكَ النقصَانُ ثمّ يخليّكَ
شبيهَ القُلامةِ الحنفاءِ
وَيليكَ السرارُ في آخرِ الشهر
فَيمْحوكَ عن أديمِ السمَاءِ
وإذا البدرُ نيلَ بِالهجو فليخْشَ
أُولو الفضلِ ألسُنَ الشعراءِ
ما بِقَدْرِ المديح بل خيفة الهجو
أخَذْنا جَوائِزَ الخلفاءِ

أكثر من حالة.. أكثر من اسم

للقمر من أول ظهوره إلى آخر سرارِه أسماء مختلفة منها:

- **الهلال:** غُرّة القمر. وقيل يُسمّى القمر لليلتين من أول الشهر هلالاً، ولليلتين من آخرِ الشهر، ستٍ وعشرين وسبعٍ وعشرين، هِلالاً، ويُسمّى ما بين ذلك قمراً.
- **الطالع:** القمر البادي من علوٍّ.
- **الرَّمِدْ:** الذي صار على لون الرماد.
- **نمير:** صفة من نَمِر: الذي فيه بقعة بيضاء وبقعة أخرى على أي لون كان.
- **الزبرقان:** القمر في الليلة الخامسة عشرة من الشهر.
- **الباهر:** يُقال قمر باهِر إذا علا الكواكبَ ضوؤه وغلبها وبَهَر القمرُ النجوم. والثلاثُ البُهر هي الليلة السابعة والثامنة والتاسعة.
- **الزمهرير:** القمر إذا اشتدّ ضوؤه.
- **الغاسِق:** القمر إذا وَقَبَ (دَخَلَ في الظلِّ الصَّنوبري الذي يكسِفُه).
- **طويس:** الطَّوْس: الهلال، وجمعه أطواس. والطوس القمر.
- **أويس:** أَوْس هو العِوَض أو العَطية – وأويس هو تصغير لأَوْس.
- **زُرَيْق:** من الزَّرِق: شديد الصّفاء. أو الزرقة: البياض حيثما كان. وقيل هو أن يغشَى السواد بياضٌ.
- **البدر:** القمر إذا امتلأ، وسميّ بدراً لأنه يُبادر بالغروب طلوع الشمس، يُقال لأنه يُبادر بطلوعه غروبَ الشمس. وليلة البدر هي ليلة أربع عشرة.
- **الجلَم:** الهلال ليلة يُهِلُّ (شُبّه بالجَلَم، وهو ما يُجَزُّ به الشَّعر).
- **العفراء:** البيضاء. والعفراء من ليالي الشهر: الليلة الثالثة عشرة. ويُقال العُفر من ليالي الشهر: السابعة والثامنة والتاسعة وذلك لبياض القمر فيها.
- **الساهور/السَّهَرُ** (كلاهما سِرياني): والساهور: دارةُ القمرِ، كالغِلاف له. يُقال للقمر إذا كَسَف دَخَلَ في ساهورِه.
- **العقيب:** عَقَبَ الليل والنهار: جاء بعده. عِقبةُ القمر: عودتُه.
- **ابن جُمير:** الليل المُظلِم، وقال ثعلب: ابن جمير هو الهلال. وقال ابن الأعرابي: يُقال للقمر في آخر الشهر ابن جمير لأن الشمس تجمُرُه، أي تواريه.
- **السلتي:** وهو اسم القمر باليونانية.
- **سمير:** السّمر هو ظلّ القمر. أو القمر صاحب الظلّ، وقد يكون سبب تسميته بالسمير لأن الناس يجلسون فيه للحديث في الليل.
- **القمر:** قيل في تسميته قمراً قولان: أحدهما أنه اشتق من القُمرة، وهو بياض تعلوه كِدره، وقيل لأنّه يَقمُر النجومَ ضياءَها، لأنها لا تُرى في ظهورِه وإنارته كما تُرى في مَغيبه ونقصانه.
- **والفَخت:** ضوء القمر أول ما يظهر. وبه سميّت الفاختة لشبه لونها بذلك، وهي ضرب من الحمام.
- والعرب تُسمّي الشمس والقمر **"القمرين"**، فيُغلبّون القمر لعلّتين: إحداهما التذكير والأخرى أنّهم أَنِسوا بالقمر.
- والعرب تُسمّي كلّ ثلاث ليالٍ من الشهر باسم. فيقولون: ثلاث غرر، وثلاث نفل، وثلاث تسع، وثلاث عشر، وثلاث بيض، وثلاث درع، وثلاث ظُلم، وثلاث حَنادِس والحندس هو الليل شديد الظلمة، وثلاث دآدي (والدِئداء هو أشد عدو البعير)، وثلاث محاق، والعرب تُسمّي كل ليلة من لياليه باسم.
- وقيل: **"ليلٌ قمراء"**، و**"ليل ظلماء"**، ومن الغرابة تأنيث الليل، ويروي أحد النحويين أنه عُني بالليل "الليلة"، أو أَنِّث على تأنيث الجمع.

معرض «القمر كاملاً»

في العام 1999م، أقام المصور مايكل لايت معرضاً فوتوغرافياً في غاليري هايارد في لندن بعنوان: "Full Moon Exhibition"، ترددت أصداؤه في أنحاء العالم ولا تزال.

لم يكن لايت هو صاحب الصور، بل وكالة الفضاء الأمريكية "ناسا"، التي فتحت خزائنها أمامه ليطلع على 39000 صورة التقطها رواد برنامج أبولو، ولم ينشر منها سابقاً سوى الجزء اليسير.

اختار لايت 129 صورة من مختلف الرحلات ليحيك منها صور رحلة واحدة تبدأ بإطلاق الصاروخ وتمر بالدخول في المدار القمري، ثم النزول على سطح القمر، فمغادرته والعودة إلى الأرض. وقد عمل لايت ثلاثين عاماً على رفع المستوى التقني والجمالي للصور المختارة بحيث جعلها دقيقة حتى أقصى حد ممكن، رغم تكبيرها إلى أحجام هائلة كانت تجعل كل من يدخل المعرض يشعر برعشة الوقوف على سطح الكوكب.

وعندما اطلع قائد رحلة أبولو 15، رائد الفضاء دايفد سكوت، على المجلد الفاخر الذي يضم صور المعرض، علّق عليه بالقول: "إن معرض القمر كاملاً هو الأقرب إلى الحقيقة من بين كل ما رأيته منذ أن كنت هناك. إن وكالة الفضاء كانت بحاجة إلى مايكل لايت قبل ثلاثين عاماً".

والمعرض الذي أقيم لمناسبة مرور ثلاثين سنة على نزول الإنسان على سطح القمر جال على عواصم عدة منها مدريد، امستردام وسيدني، قبل أن يدخل نهائياً إلى "متحف التاريخ الطبيعي" في نيويورك.



المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي

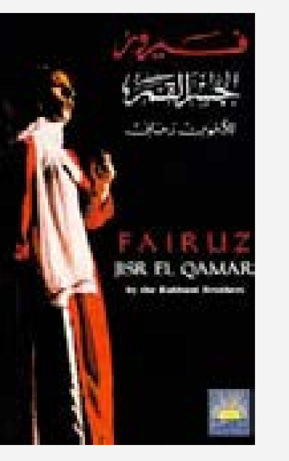
▲ من المعرض

أنغام القمر

في الأغنية العربية

يشبه استخدام القمر في الأغنية حاله في القصيدة، فمنذ العهد الأول للأغنية العربية المدونة على أسطوانة، لا المحفورة في الذاكرة الجماعية وحسب، ظهر للقمر شأن. فها هو العراقي (بصوت ناظم الغزالي) يشبّه خد حبيبته بالقمر: "مثل بدر التم وأشرق عالرياض".





وتعايد أم كلثوم المسلمين بعيد الفطر السعيد، بعد صيام شهر رمضان والتماس الهلال، بـ "هلت ليالي القمر"، لتقاسم لاحقاً عشاق فنها في أغنية "ألف ليلة" لحظة مع الحبيب: "الليل وسماه ونجومه وقمره ... وأنت وأنا يا حبيبي".

غير أن أجمل ما غنته أم كلثوم في مقارنة الحبيب بالقمر كان في أغنية "حبيبي يسعد أوقاته" التي كتب كلماتها بيرم التونسي، وفيها تقول:

حبيبي زي القمر قبل ظهورُه يحسبوا المواعيد
زي القمـر يبعث نـورُه مـن بعيد لبعيد
زي القمـر بس جمالُـه كـل يـوم يـزداد
وكـل مـا يهـلّ هـلالـه تنعـاد الأعيـاد
والليـلـة عيـد

ويؤكد محمد عبد الوهاب أننا "كلنا نحب القمر"، ويجاريه في التأكيد طلال مداح بإنشاده "هو بدر". أما عبد الحليم حافظ الذي غنى "ع شانك يا قمر"، فتحول مدّاحاً له، "عاشقاً لليالي السهر". وتشكو فايزة أحمد حالها لأمها، وتقول لها أن النصيب يطرق الباب "يما القمر عَ الباب" وما القمر هنا غير الحبيب.

أما الشاعر صلاح جاهين، فحوّل الصاروخ المسافر إلى القمر، إلى ما يشبه الحافلة التي تنقل ركاباً من الطبقات الشعبية لحنها وغناها الشيخ سيد مكاوي، تقول:

قـرَّب خُـد تـذكرة يـا نـاوي عالسفـر
حانقوم مِ القاهرة دوغـري عـالقمـر

وثمة أغنية في القمر طارت بشهرة وليد توفيق في العالم العربي، وهي باكورته، "قمر الليل يا قمري"، ولم يفت هاني شاكر معاتبة القمر:

كده برضه يا قمر تصاحبني عَ السهر

ولم يتغير القمر، بمفهومه الرومانسي، في الأغنية، بعدما وطأته قدم أول إنسان. وكانت للحدث ترجمة في أغنيتين لوديع الصافي ووداد، "يا طالعين عَ القمر"، و "نجمات الليل"، علماً بأن للصافي شأناً آخر مع القمر في "يا قمر الدار" إذ يحوله مرسالاً ينقل سلامه إلى الأحبة.

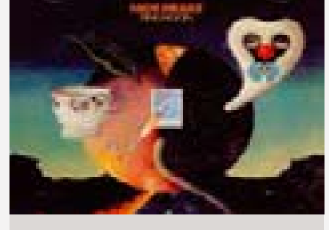
يبقى القمر في صوت فيروز، وفي أعمال الأخوين رحباني، حيث تربع سعيداً، وحملت أكثر من خمس عشرة أغنية لهذا الثلاثي، كلمة قمر، في عنوانها، ومنها "نحن والقمر جيران"، و "حبيبي بدو القمر"، و "طلع القمر غفي حبيبي" و "القمر بيضوي عَ الناس والناس بيتقاتلو" ...

حتى إن إحدى مسرحياتهم كانت جسراً للقمر. مع هؤلاء، لم تبقَ فكرة في الحب أو الوصف أو الغزل أو الوجدانيات أو الطبيعة، إلا حضرت قمراً في أغنية. ولعل أروع تلك الأفكار، أن ثمن القمر "عشر ليالي سهر"، وعلى فيروز أن تدفعه، لئلا يظل في غفلة منها، وتسرقه

جارتنا اللي مزاعلتنا وتعطيـه لحبيبـي
ويحبّـا حبيبـي ... وأنـا صيـر غريبـي

وبعد؟ "هل يخفى القمر"؟

في الأغنية الغربية


▲ القمر على غلاف اسطوانة أجنبية

ولا يقل شأن القمر في الأغنية الغربية عما هو عليه في الأغنية العربية. تغنى به فرانك سيناترا في "نهر القمر" (Moon River) و"طر بي إلى القمر" (Fly me to the Moon). ومن أشهر أغاني الفيس بريسلي "القمر الأزرق" (Blue Moon)، كما أنها أولى أغانيه الهادئة خلافاً لأسلوبه الصاخب في الغناء.

وغلين ميللر أمريكي آخر غنى "معزوفة ضوء القمر" (Moonlight Serenade) والعالم بأسره يعرف أغنية "على ضوء القمر" (Au clair de la lune) التي غنتها الشعوب بكل اللغات، وكان الفرنسي جان باتيست لولي قد لحنها سنة 1685م.

الفيال والقمر

أدب الأطفال يسبق علم الكبار

سبق الأدب العلم في إيصال الإنسان إلى سطح القمر. ولعل القصة المصورة للصغار من سلسلة "تان تان" التي صدرت سنة 1954 بعنوان "مشوا على سطح القمر" هي الأشهر عالمياً.

وغالباً ما كان أدب الخيال العلمي منطلقاً لمحاولات تطبيقية. فعندما ظهر كتاب فرنسيس غودوين "الإنسان في القمر" سنة 1638م، فكّر أحدهم في اختراع وسيلة سفر إلى القمر تقوم على بناء هيكل خشبي تحمله عدة طيور صوب الأعلى!

وعندما نشر جول فيرن سنة 1865 روايته الخيالية "من الأرض إلى القمر"، فكّر أحد الأثرياء الأمريكيين ببناء مدفع عملاق يقذف بمركبة مأهولة في إتجاه القمر.

غير أن أكثر الأمور إثارة للحيرة ورد في الرواية الثانية لجول فيرن "حول القمر" التي نشرها سنة 1870م. إذ أن موقع إطلاق الصاروخ في الرواية هو في فلوريدا بالقرب من كاب كانيفرال التي اعتمدت بعد نحو قرن منطلقاً للرحلات الفضائية، كما أن موقع هبوط المركبة الفضائية في الرواية هو في المحيط الهادي ولا يبعد سوى أميال معدودة عن المكان الذي هبطت فيه "أبولو 11" بعد مئة عام !!

▼ من كتاب "مشوا على سطح القمر"، ص. 10



مئة وجه للقمر

نال القمر حصته من فن الرسم، وبلغ اهتمام الفنانين به ذروته في القرن التاسع عشر.

الفنان هنري روسو رسم القمر في لوحة تجمع غجرياً إلى أسد فوق أرض صحراوية في لوحة ذات مناخ يذكر ببيئتنا العربية. والرومنطيقي أوجين ديلاكروا رسم "لصوص الخيل" يقومون بإحدى سرقاتهم ليلاً في لوحة لا يضيئها غير القمر.

غير أن أشهر ظهور للقمر في الفن كان على يدَي الرسام الياباني يوشيتوشي (1798 - 1861م) الذي رسم مجموعة لوحات بلغ عددها المئة وأسماها "مئة وجه للقمر". وفي هذه اللوحات المعدة أساساً للطباعة ونشرتها دار "أكياما بويمون" ما بين 1885 و 1892م، نرى القمر شاهداً على أحداث وأبطال ومشاهد مستوحاة من التاريخ الياباني القديم الذي كان غالياً جداً على قلب الرسام. ولعل ما دفع الرسام إلى اعتماد القمر كبطل ثانٍ في هذه اللوحات التاريخية، هو كونه الشاهد الوحيد الذي بقي من تلك الأزمنة الغابرة.

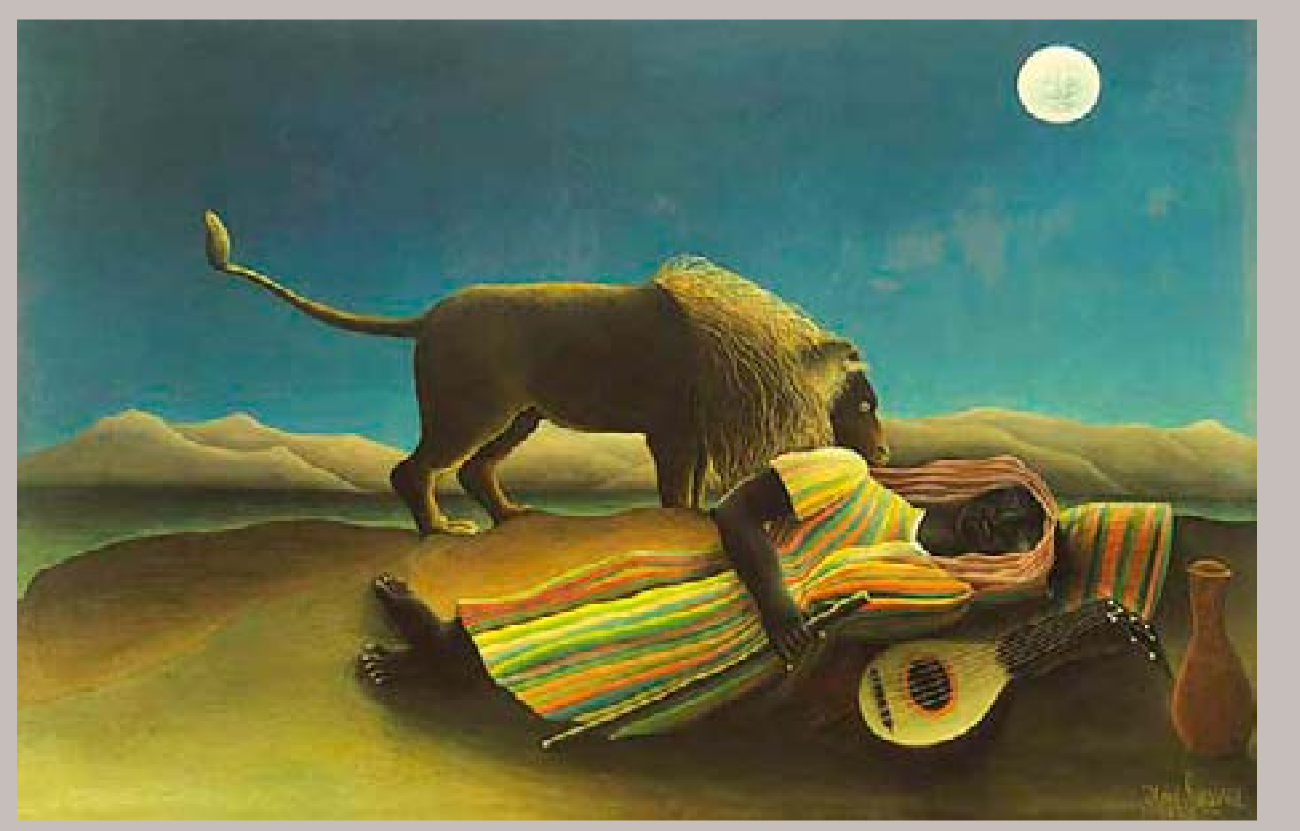






محطات في تاريخ القمر

- **الألف الثالث ق.م:** أول تقويم قمري في بلاد ما بين النهرين
- **الألف الثاني ق.م:** توقع غير علمي للخسوف ومواعيده في الصين
- **القرن الخامس ق.م:** ظهور الرياضيات الفلكية في بلاد ما بين النهرين
- **سنة 155ق.م:** الروماني بوسودونيوس يقيس المسافة بين الأرض والقمر وحجمه.
- **القرن العاشر الميلادي:** الفلكي والجغرافي العربي أبو معشر يكتشف العلاقة بين القمر وحركة المد والجزر في البحار.
- **1085م:** بدء تدريس علم الفلك العربي في الغرب.
- **1609م:** قانون كيل حول أهليلجية المدار القمري حول الأرض.
- **1608م:** رواية "الإنسان في القمر" لفرنسيس غودوين.
- **1679م:** الإيطالي كاسيني يضع خارطة لسطح القمر.
- **1835م:** أدغار الان بو يكتب: "اكتشافات قمرية، رحلة جوية مذهلة".
- **1850م:** أول صورة فوتوغرافية للقمر.
- **1856م:** رواية "من الأرض إلى القمر" لجول فيرن.
- **نهاية القرن التاسع عشر:** النظريات العلمية الأولى حول نشوء القمر.
- **20 ديسمبر 1961م:** قرار من الأمم المتحدة يجيز استكشاف القمر لكل دول العالم، ويمنع ضم أي جزء منه إلى أية دولة من الدول.
- **1966م:** هبوط ناجح لأول مسبار فضائي سوفياتي على سطح القمر.
- **1968م:** أول رحلة بشرية إلى مدار حول القمر (أبولو 8 الأميركية).
- **1969م:** هبوط الإنسان على سطح القمر لأول مرة.
- **بعد العام 1973م:** إهمال الرحلات القمرية المأهولة.
- **1994م:** القمر الصناعي "كليمانتين" يضع خارطة دقيقة وكاملة لسطح القمر بأسره.
- **2003م:** إطلاق المسبار الأوروبي "سمارت-1" لدراسة تضاريس القمر ومكوّنات تربته.



هنري روسو. الغجري النائم 1897م. زيتية (129.5*200.7 سم). متحف الفن الحديث، نيويورك. هدية من السيدة سيمون جوجنهايم. صورة رقمية (مسجلة) 2003م.



Al-Qafila

Saudi Aramco
Cultural Magazine

Published bi-monthly

September – October 2003
Vol 52 issue **4**

